قبسات من نهج البلاغة

السيد سامي خضرا

بسمه تعالى شأنه الكريم

الإهداء

إلى مولانا، مولى المتقين، أمير المؤمنين، عليه السلام

ماذا أقول؟ ونحن في قلب المعاناة!!! في زمان القائل فيه بالحق قليل،

واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل!!!

إن عملتُ بما أمرت، وأنىَّ لي ذلك، لم يُبقِ لي الحقُّ صديقاً !!!

وإن لم أعمل: ضيعتُ الأمانة

وظلمتُ نفسي، التي تموت في كل يومٍ مرات...

* * *

نعم...

ما زلنا في قلب المعاناة...

إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم...

ربي اجعل سفري إليه سريعاً...

"وعجلتُ إليك، ربي لترضى"

إلى هنا... وانكسر القلم...

13 رجب الأصب برحمة الله تعالى 1416هـ ...

الراجي رحمة ربه

يوم أمير المؤمنين عليه السلام

سامي بن حسن خضرا

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، نحمده على ما كان، ونستعينه من أمر ربنا على ما يكون ونسأله المعافاة في الأبدان، والصلاة والسلام على خاتم أنبياء الله ورسله وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين.

نشكر الله سبحانه على نعمه التي لا تُعد ولا تحصى، ومنها ما أجراه على لسان مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين- عليه السلام - ويتشوق المرءُ بل يأسف على ما لم يصلنا من كلامه الشريف، سلام الله عليه، وعلى ما فاتنا منه في بطون الكتب، وصدور الرجال، وغيابة الزمن.. ومع ذلك، أدهش العقول.

والحق يُقال:

إنَّ كتاب نهج البلاغة كتاب مظلوم، لم يُعرفْ حقُّه حتى الآن، خاصة لجهة تدريسه وشياعه، وحفظه والاستفادة من نصوصه، بين عامة الناس... وبالرغم من شهرة الاسم، والعنوان...بقي المحتوى والمضمون مغمورين..

أما هذا الذي بين أيدينا، فخطوة،آمل أن أكون قد استفدتُ منها، وتفتحت أمامي أفاقٌ جديدة...

والحق يُقال أيضاً إني ما أغترفت يوماً من النهج المبارك، وتركتُه طوعاً...

وما فتحت باباً من أبوابه الكثيرة، إلا فُتح أمامي، ما لا يُحصى من كنوزه...

كأنها كنوزٌ لا حد لثمنها، بين يدي طفلٍ لا يعرف قيمتها...

ولا شك أن الجميع علم أو سمع عن عظمة وسموَّ كتاب نهج البلاغة، لأمير المؤمنين علي- عليه السلام - فكلامه " دون كلام الخالق عز وجل وفوق كلام المخلوق". وعلى ذلك فإن هذا الكتاب مظلوم... نتيجة إهماله ونبذه من قبل كثير من الناس... ولو لم يكن ذلك سوء نية، كما هي حالة الأغلبية. فأكثر الناس لم يطلع أصلاً على هذا الكتاب الجليل، وكثيرٌ من الباقين اكتفى بقراءة بعض المقاطع أو العبارات.. وأما الذين حاولوا دارسته والتدقيق به والتمعن في مضمونه... فقليل ما هم.

وكل مسلم وعاقل بحاجة الى ان يتعمق في مضمون هذا الكتاب الشريف الذي قيل في حقه: إنه أعظم كتاب بعد القرآن الكريم.

ومهمتنا اليوم تبسيطُ هذا الكتاب، بأساليب مختلفةٍ وصياغاتٍ متعددة، ليتمكن النشئ الجديد وباقي المستويات العلمية من الاستفادة منه على النحو الأكمل والأفضل...وذلك بالتركيز على بعض المواضيع التي تمس الحاجة إليها، وتقضي بها الضرورة، كالمواضيع الأخلاقية، والسلوكية والتربوية والاجتماعية والجهادية والسياسية.

فمن الظلم لعلي أمير المؤمنين - عليه السلام - أن نجعله، نزولاً عند رغبة بعض الجهلاء، بعيداً عن الأجواء العسكرية والشؤون الحربية والتيارات الحربية والتيارات السياسية في عصره، وهو مَنْ هو في القيادة الحكيمة، والإمامة الرشيدة.

إنَّ أدنى نظرة الى الكتاب المبارك نهج البلاغة تُريك عشرات الخُطب وفيها المبادئ السياسية، والنقد والتقريع، والإرشاد والتوجيه، والتحذير والشكوى والمرارة، والادارة وأسس وقواعد العلوم السياسية والاجتماعية والنفسية، مزينة بالعاطفة الجياشة، في القَسَم والتمني والترجي، والأمر والنهي والتعجب، والاستفهام والإنكار، والتوبيخ والتقريع.

ويحتار الانسان من أين يبدأ: أمِنَ الجهادِ والشهادة ومفاهيم الحرب والنصر والشجاعة والقوة والإقدام والثبات والمرابطة والمراقبة والاحتساب؟

أمن من التقوى والمتقين والخشوع والورع والتواضع والخوف والرجاء والأخلاق وجهاد النفس؟ أم من السلطة والسلطان والرئاسة والسياسة والدنيا والولاية والإمام والحاكم؟ أم من الزهد والموت والمعاد والجنة والنار؟

... ويطول بنا المقامُ لو أردنا تعداد المواضيع والمصطلحات الأصيلة، التي تستدعينا للعمل على توضيحها وشرحها وتبليغها، على أسس الإسلام المحمدي الأصيل، فأمامنا الخطب والمقالات، وعددها إحدى وأربعون ومئتان، والرسائل والوصايا، وهي تسع وسبعون، والحِكم وقصار الكلم، وعددها ثمانون وأربعمائة.

... ولا ننسى أن الكتاب الشريف: "نهج البلاغة" هو الكتاب الوحيد، بعد القرآن الكريم، الذي أستحوذ اهتمام العلماء، شرحاً وتفسيراً وحفظاً وتعليقاً، وقد كُتب حتى الآن خمسون ومائة كتاب حوله، وسنرى، بعون الله تعالى وتوفيقه، نماذج مما يتيسر معنا من بركات هذا الكتاب الشريف.

****

... ونختم بما ختم به الشريف الرضي(رضي الله عنه) من القول:"ومن الله سبحانه أستمد التوفيق والعصمة، وأتنجَّز التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجنان قبل خطأ اللسان، ومن زلة الكلم، قبل زلة القدم، وهو حسب ونعم الوكيل"

وأخيراً:

****

السلام عليك مولاي سلام مودِّعٍ، لا قالٍ ولا سئم، فإن انصرف، فلا عن ملالة، وإن أُقمْ، فلا عن سوء ظنٍ بما وعد الله الصابرين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

13 رجب الأصب 1416 هـ

الفقير الى رحمة الله

يوم الولادة المباركة

سامي بن حسن خضرا

الباب الأول

في المواعظ والاخلاق

... فناء الدنيا

الموعظة ضرورة لا بد منها لإيقاظ النائمين، وتذكير الغافلين من البشر... وهي من أهم أساليب المدارس الإلهية التي حَمَلَ همَّها الأنبياء الكرام عليهم السلام.

... ويُمكن للإنسان أن يتّعظ بعدة أمور منها، الاتعاظ بتقلبات الدنيا ومكرِها وغدرِها وخذلانها ومفاجآتها وبطشها، وكيف تجعل الغني فقيراً والصحيح عليلاً، والقويَّ ضعيفاً، والحاكم محكوماً... والحيَّ ميتاً، بين ليلة وضحاها.

... إنّ أدنى نظرة الى تاريخ السابقين من الحكام والملوك وفراعنة الأرض تُثبتُ لنا ذلك... ننظر إلى آثارهم إلى قصورهم ودولهم وممالكهم وأموالهم ونسائهم... كما ننظر إلى مقابرهم ونتساءل:مَنْ منهم انتقل بإرادته وقراره، ورضى بموته على حياته؟... ومَنْ منهم لا يحسر على أعماله؟ ومَنْ منهم بقيَ ذكرهُ وعلا أثرهُ؟... وأخيراً: مَنْ منا يمكنه أن لا يلحق بهم ويُصبح كأحدهم؟.

... يقول عليٌ - عليه السلام - في وصيته لابنه الحسن عليه السلام، وهي من أبرز الوصايا في نهج البلاغة المبارك، يقول فيها واعظاً له من غدر الدنيا ومكرها:" أحي قلبك بالموعظة... وذلّله بذكر الموت.. وبصِّره فجائعَ الدنيا، وحذِّره صولة الدهر، وفُحشَ تقلُّب الليالي والأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكِّره بما أصاب مَنْ كان قبلك من الأولين، وسرْ في ديارهم وآثارهم، فانظُرْ فيما فعلوا، وعمَّا انتقلوا، وأين حلُّوا ونزلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة، وحلُّوا ديار الغربة، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم، فأصلِحْ مثواك، ولا تبعْ آخرتك بدنياك...".

***

... ثم، مَنْ قال أن الدنيا تدوم لبشر، ومَنْ يدَّعي ذلك؟! أو ليس مصيرُ الدنيا إلى فناء... وتحصيلها لا يكون إلا بعناء، ولا تستقر على حال؟، فالرفيع أصبح وضيعاً، والزعيم صار مسجوناً، والرئيس بات معدوماً...

وبقيت منازلُ ورحَلَ بانوها، وشمخت عماراتٌ ودُفن ساكنوها؟...وأيُّ جاه لم يتغير على صاحبه... وأيُّ سلطان لم ينقلب على مالكه؟ ...فهي متقلِّبة من حال إلى حال...لا تدري أتدركُ آمالك أولاً أم آجالك؟...تُحققُ رغباتِك أم تسبقُكَ منيَّتُك؟.

يقول علي - عليه السلام - في موعظةٍ له:..ثم إن الدنيا دارُ فناءٍ وعناءٍ، وغِيرَ وعِبَر... فمن الفناء أن الدهر... يرمي الحيّ بالموت، والصحيح بالسّقَم، والناجي بالعطب، آكلٌ لا يشبع، وشاربٌ لا ينقع، ومن العناء ان المرء يجمع ما لا يأكل، ويبني ما لا يسكُنُ، ثم يخرُج إلى الله تعالى، لا مالاً حمل، ولا بناءً نقل ... ومن عِبرها أن المرءَ يُشرفُ على أمله، فيقتطعُهُ حضورُ أجلِه، فلا أملٌ يُدرك، ولا مؤمَّلٌ يُترك...فسبحان الله، ما أقرب الحيَّ من الميت، للحقَاه به، وأبعدَ الميت من الحي لانقطاعه عنه...".

***

... وإن لم تتعظ، يا أخي وحبيبي، من غيرك، أفلا تتعظُ من نفسك!...

وانت ترى تأْلُبَ الإخوان وتقلب الزمن عليك، وتبدُّلَ صحتِك بين يوم وأخيه، بل لا بل بين ساعة وأخرى...من الصحة الى المرض، ومن القوة إلى الوهن، لا تدري متى تُصاب ولا تعرف متى تضعف، فإذا انت عند الصباح تضحك وعند المساء تبكي، أو عند نومِك تهنأ وعند صباحك تشقى...وكم من قوم باتوا يضحكون وأصبحوا يبكون وينتحبون يقول عليٌ عليه السلام: "وبادروا بالأعمال عُمُراً ناكساً، ومرضاً حابساً أو موتاً خالساً، فإنَّ الموت هادم لذاتِكم، ومُكدِّرُ شهواتكم...".

ويقول - عليه السلام -:"أم ليس من نومتك يقظةٌ؟ أما ترحمُ من نفسك ما ترحم من غيرك؟ فلرُبّما ترى الضاحِيَ من حرِّ الشمس فتُظلَّه، أو ترى المُبتَلى بألم وعزَّاكَ عن البكاء على نفسك، وهي أعزُّ الأنفسِ عليك...".

وفي غدر الدنيا وبلاء الجسد، يقول- عليه السلام -:" وَلَهَي بما تعِدُكَ من نزول البلاء بجسمك، والنقص في قوتك، أصدقُ وأوفى من أن تكْذِبَك أو تغُرَّك".

الرحيل وشيك

... لك بداية نهاية... ولكل مسافرٍ راحة.. ولك خُمُودْ.. والحيُّ يسير إلى موت...وكلّ الأمور سائرةٌ وصائرة إلى أجلٍ مُسمَّى، لا تبغي فيه حِوَلا، ولا تستطيع منه بدلا. فنحن المسافرون، نحن السائرون، نحن الراحلون المتقلبون، نحن المهاجرون الظاعنون عن الدنيا، لا نَنْتَظِرُ ولا نُنْتَظَرُ.

***

... فالمركبُ يجري، ويشقُّ طريقَه، ودولابُ الزمان يدورُ تتبعها أخرى...من حال إلى حال، وغلى الله تعالى المآل والفائزُ الفائزُ مَنْ أحسن الاتكال، وبعد. فالوصية بتقوى الله وطاعته "فإنها النجاة غداً، والمنجاةُ أبداً.

... يقول عليٌ - عليه السلام -:" ووصف لكم الدنيا وانقطاعها، وزوالها وانتقالها، فأعرضوا عمَّا يُعجِبُكُم فيه، لقلة ما يصحَبُكُم منها، أقربُ دارٍ من سخَطِ الله، وأبعدُها من رِضوان الله، وتصرُّفِ حالاتِها، فاحذروها حذَر الشفيق الناصح والمجدِّ الكادح، واعتبروا بما قد رأيتم، من مصارع القرون قَبْلكُن، تزاليتْ أوصالُهُم وزالتْ أبصارُهُم وأسماعُهم، وذهب شرفُهم وعِزُّهم، وانقطع سُرورُهم ونعيمُهم، فَبُدِّلوا بقرب الأولاد فقْدَها، وبصحبة الأزواج مُفارَقَتها، لا يتفاخرون، ولا يتناسلون، ولا يتزاورون، ولا يتحاورون...فأحذروا عبادَ الله حذَرَ الغالِبِ لنفسه، المانع لشهوته، والناظرِ بعقله، فإنَّ الأمر واضح، والعلم قائم والطريق جدَد والسبيلَ قَصْدٌ".

... أخي وعزيزي: لعلَّك تظنُّ أنك فررتَ من الموت، أو خُيِّل إليك ذلك، كما يُشبَّهُ لأكثر الناس، لكن... هل تظنُّ أن الموت سوف يَفِرُّ منك ولا يدرِكُك...إعلمْ إنك إنْ لم تَسْعَ للقائِه، فلا مَحَالةَ سيسعى للقائك، وإن لم تبادِرْه بادَرَك، وإنْ لم تُفاجِئْه فاجأك... وإن لم تسعتدَّ له، فقد تهيَّأ وتأهَّب واستعدَّ لك... واعلم أن كلَّ يقينيَ الحصول، قريبُ الوقوع... وكلَّ آتٍ قريب، وكلَّ حتميَ وشيك وما هو إلا نَفَسٌ أو دون ذلك...

***

... ويبقى الموتُ مكنوناً في علم الله المخزون، لا يعمل به حتى المقربون... وسلام الله تعالى على علي أمير المؤمنين الذي يقول:"أيها الناس، كل امرئٍ لاقٍ ما يفِرُّ منه في فِراره. الأجلُ مَسَاقُ النَفْسِ، والهربُ منه موافاتُه... كم أطَرَدْتُ الايامَ ابحثُها عن مكنون هذا الأمر، فأبى الله إلا إخفاءَه. هيهات !... علمٌ مخزون!...ربٌ رحيم، ودين قويم، وإمام عليم. أنا بالأمس صاحِبُكم، وأنا اليوم عِبْرةٌ لكم، وغداً مُفارِقُكُم! غفر الله لي ولكم...".

ويُتابع - عليه السلام – مُشدداً على ضرورة الاعتبار والانذار، فيقول:"وإنما كنتُ جاراً، جاوَرَكم بدني أياماً وستُعْقَبُوْنَ مني جُثَّةً خَلاَءً ساكنة بعد حِرَاكٍ, وصامتةً بُعد نطقٍ, لِيَعظُكُمْ هُدُوّي, وخُفوتُ إطراقي, وسُكُونُ اطرافي, فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ , والقول المسموع ... " .

ويختم - عليه السلام - بالاشارة إلى قيام أمير بدل أمير, وإلى موت مِلكٍ وقيام ملك, وذهاب سلطان وحلول آخر محلَّه ... وهذه سنة الله تعالى في الملل والدول, في هذا الزمان وفي كل زمان ... فيقول - عليه السلام -:"غدا" تَرَوْنَ أيامي, ويُكشَفُ لكم عن سرائري, وتعرفونني بعد خُلُوّ مكاني وقيام غيري مُقامي".

العبرة بالسابقين:

أخي, ننظُر إلى الديار ... ونتأملُ في الآثار, فيَحْسُنُ الاعتبار... يقف المرء على الأطلال, أطلالِ الآباء والأجداد: بيوتِهم ومنازِلهم, حقولِهم وبيادِرِهم, رزقِهم وأملاكِهم ... عندما يقف هناك, ويُناجي نفسَه بالذين مروا من هنا, وعن الذين بَنَوا هناك, وعمرَّوا هنالك وأنشأوا ورفعوا وشيَّدوا وغرَسوا الأشجار, وأحيوا القِفار, وكلُّ ما يُحيطُ بنا يُشيرُ إليهم, مَعَ انعِدَامِ وجودِهم بيننا .

والى هذا يُشير مولانا عليّ- عليه السلام - عندما يقول: فاعتبروا بنزولِكم منازلَ مَنْ كان قبلَكُم, وانقطاعِكم عن أوصلِ إخوانكم".

ويقول- عليه السلام - قبل ذلك : أوَ لَيس لكم في آثار الاولين مُزْدَجَر, وفي آبائِكم الماضينَ تبصِرَةٌ ومعتبر إن كنتم تعقلون!, أوَ لَمْ تروا إلى الماضين منكُم لا يرجِعون , وإلى الخَلَفِ الباقينَ لا يَبْقَوْن!, أَوَلَستُم تَرونَ أهلَ الدنيا يُصبْحونَ ويُمسُون على أحوالٍ شتى , فميّتٌ يُبكَى وآخرُ يُعزَّى, وصريعٌ مُبْتلَى, وعائدٌ يعود, وآخرُ بنفسهِ يجودُ, وطالبٌ للدنيا والموتُ يطلُبُهُ, وغافلٌ وليس بمغفول عنه, وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي!.

وفي نص آخر، دَلالاتٌ عظيمةٌ إلى مَنْ عايَشْنا وجاوَرْنا، ورأَينا وعاينَّا ولا مَسْنا وحاورنا... ثم فارقنا على حين غزة:... فيا عجبي! اللدنيا خلق آبائي وأجدادي أن للآخرة؟... فإن كانوا للدنيا قد خلقوا فلم فارقوها ورحلوا عنها؟!!!!

... وإن كانوا للآخرة قد خُلقوا... فإلى الآخرة أيضاً نحن قد خُلِقْنا، وإليها مصيرُنا... فليس بإرادتهم رحلوا، وليس بإرادتنا نرحل... ولم ينفعْهم عَمَلُهم للدنيا، وتعلُّقُهم بها... ولن ينفعَنا نحن ذلك...

... كأني بهم ومُذْ وُلِدوا لِلأُخرةِ لا للدنيا وُلِدوا، فهناك في دارِهِم الحقيقة يَأْنَسُون، وفي هذهِ الدار دارِ الوحشة يستوحِشُون، هناكَ دارُ المقرِّ ودارُ الخلود.

... وهذا مدلولُ قولِهِ - عليه السلام -:" فكفى واعظاً بموتى عايَنْتُموهُم، حُمِلوا الى قبورِهم غيرَ راكبين، وأُنزِلوا فيها غيرَ نازلين، فكأنهم لم يكونوا للدنيا عُمَّاراً، وكأن الآخرة لم تزلْ لهم داراً، وأوحشوا ما كانوا يوطنون، وأوطنوا ما كانوا يوحشون واشتغلوا بما فارقوا، وأضاعوا ما إليه انتقلوا، لا عن قبيح يستطيعون أنتقالاً ، ولا حَسَنٍ يستطيعون ازدياداً، أنِسوا بالدنيا فغرَّتْهم، ووثِقوا بها فصرعَتْهم، فسابِقوا، رحمكُمُ الله، إلى منازِلكم التي أمِرْتُمْ أن تَعْمرُوها، والتي رُغِّبْتُم فيها ودُعِيتُم إليها ... ما اسرعَ الساعاتِ في اليوم, وأسرعَ الأيام في الشهر, وأسرعَ الشهور في السنة , وأسرعَ السنين في العُمر".

ويقول - عليه السلام - في هذا المجال أيضا" : " واتَّعِظوا بممن كان قلبكم , قبل أن يتعظ بكُمْ مَنْ بَعْدَكُم".

***

ويُروى أنه - عليه السلام - تبع جنازةً فسمِعَ رجلا" يضحكُ فقال : " كأنَّ الموت فيها على غيرِنا كُتِبْ , وكأنَّ الحقَّ على غيرِنا وَجَب , وكأنَّ الذي نرى مِنْ الاموات سَفرٌ عمَّا قليل . . . الينا راجعون , نُبوّئُهم أجداثَهم , ونأكلُ تُراثَهم كأنّا مُخلَّدُون بَعَدهم , ثم قد نسينا كلَّ واعظٍ وواعظةٍ, ورمينا بكل فادحٍ وجائحة ".

وفي نص آخرَ يقول - عليه السلام - : " واتَّعظوا فيها بالذين قالوا : مَنْ أشدُّ مِنَّا قُوَّةً. حُمِلوا الى قبورِهم فلا يُدْعَون رُكبانا, وأُنزِلوا الأجداث فلا يُدعَوْنَ ضِيفانا, وجُعِلَ لهم مِنَ الصَّفِيْحِ أجْنَان, ومِنْ الترابِ أكفان, ومن الرُّفات جيران, فهم جيرةٌ لا يُجيبون داعيا, ولا يمنعون ضيما, ولا يُبالون مَنْدَبَة . . . جميعٌ وهم آحاد. وجيرةٌ وهم أبعاد, مُتدانون لا يتزاورون, وقريبون لا يتقاربون ... استَبْدَلُوا بِظَهْرِ الارضِ بطنا, وبالسِّعَةِ ضِيقا, وبالأهل غُربة, وبالنور ظلمة, فجاؤوها كما فارَقُوها, حُفاةً عُراة ...".

حبُّ الدنيا, لماذا؟

يبدو من خلال عمليةِ استقراءٍ سريعةٍ للواقعِ البشري, أنَّهُ ما من أحدٍ إلا ويتعلقُ قلبُه بالدنيا, ولا يريد تركَها, خاصة مَنْ أَنْعَمَ اللهُ تعالى عليهم أو أبتلاهم بالسلطة والسلطانِ والمالِ الكثير والرزقِ الوفير... ويَنْدُرُ, وبنسبةٍ كبيرة, أن تَرى شذوذا" عن هذه

القاعدة...

وعلى الرغم من أننا نرى من الدنيا غَدْراً ومرضاً ومصيبةً ووجعاً وبلاء... إلاَّ أننا نتعلق بها, ونحن نعلم يقيناً أنها يوماً ما ستنكُثُ عهدَها معنا، وهي المنغِّصَةُ لحياتِنا, القاطِعَةُ لِفَرْحَتِنا.

يقول علي - عليه السلام - : "عبادَ اللهَ أوصيكُم بالرفضِ لهذه الدنيا التارِكَةِ لكم, وإنْ لم تُحِبُّوا تركَها, والمُبْلِيَةِ لأَجْسَامِكُمْ, وَإنْ كُنْتُمْ تُحِبُّون تَجدِيدَها , فإنما مَثَلُكُم ومَثَلُها, كسَفْر سَلَكُوا سَبِيلاً, فكأنهم قد قطعوه, وأمُّوا علماً فكأنهم قد بلغوه... فلا تَنَافَسوا في عِزّ الدنيا وَفَجْرِها, ولا تُعْجَبُوا بزِينَتها وَنَعِيْمِهَا, ولا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِها وَبُؤْسِها ,فإنَّ عِزّ وَفَخْرَها الى انقِطَاعْ وانَّ زِيْنَتَها وَنَعِيْمَهَا الَى زَوَالْ, وَضَرَّائِها وَبُؤسِها, فإنَّ عِزَّها وَفَخْرَها إلى انقِطَاعْ وإنَّ زِيْنَتَها وَنَعِيْمَهَا إلى زَوَالْ, وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا إلى نَفَادَ, وكلَّ مُدَّةٍ فيها إلى إنتِهاء, وكلَّ حيٍّ فيها الى فَنَاءً".

والسرُّ في تعلُّقِ الناسِ بالدنيا، وشَغفِهِم بها، كَثْرَةُ الشَّهَوَاتِ فِيْها، وتَنَوُّعُ التزَيُّنِس مِنْها، من مالٍ وفير، إلى قصور رَحْبَة، ومناصبَ مُرَغِّبة، إلى مُلْكٍ مُتَسَلِّط، إلى حُبّ لِلْبَقَاءْ... إلى زينةٍ متعددة الصعد والأشكال والرغبات... لا ينجو من تعرُّضهم ومكرِها حتى المؤمنون الذين تُسَوِّلُ لهم أكثرَ من غيرهم...

ومَنْ يدري متى يأتي الأجل؟! أو متى ينزل المرض؟! ومتى تحلُّ المصائب؟ يقول عليٌ أمير المؤمنين - عليه السلام - في نهج البلاغة:" أمّا بعدُ، فإنّي أحذِّرُكم الدنيا فإنها حُلوةٌ خضِرةٌ، حُفّتْ بالشهوات، وتحبَّبت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلَّت بالآمال، وتزيَّنت بالغرور، ولا تدوم حَبْرَتها، ولا تُؤْمَنُ فَجْعَتُها، غَرَّارَةٌ ضَرَارَة، حائِلَةٌ زائِلَةٌ، نافِدَةٌ بائِدَة أكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ... لم يكنِ امرؤٌ منها في حَبْرةٍ إلا أعقَبَتْهُ بعدَها عَبْرَة، ولم يَلْقَ في سَرَّائِها بَطْناً إلا مَنَحَتْه من ضرَّاتِها ظَهْراً... لا ينالُ امرؤٌ من غَضَارَتها رَغَباً، إلاّ أرهقَتْه من نوائِبها تَعَباً، يُمسي منها في جَنَاحَ آمْنٍ عليها، إلاّ أصبح على قَوَادِم خوف، غرَّارةٌ غرور ما فيها، فانِيَةٌ فانٍ مَنْ عليها، لا خيرَ في شيئٍ من أَزْوَادها، إلا التقوى، مَنْ أقلَّ منها استكثَرَ مما يُؤمِنُه، ومن استكثرَ منها استكثَر مما يوبِقُهُ، وزال عمَّا قليل عنه، كم من واثِقٍ بها قد فجعتْهُ، وذي طُمأْنِينَةٍ إليها قد صَرَعَته، وذي أُبَّهَةٍ قد جَعَلْتْه حقِيراً، وذي نخوةٍ قد ردَّتْه ذليلاً... سُلطانُها دُوَلٌ، وعيشُها رَنِقٌ، وعَذْبُها أُجَاجٌ، وحُلْوها صَبِرٌ وغذاؤها سِمامٌ، وأسبابُها رِمام، حَيُّها بِعَرَضِ مَوْتٍ، وصحِيحُها بِعَرَضِ سُقْم، مُلْكُها مَسْلُوبٌ، وعزيزُها مغلوبٌ، وموفورُها منكوب، وجارُها محروب".

" الستُم في مساكن مَنْ كان من قبلَكُم، أَطْوَلَ أعماراً، وأبقى آثاراً، وأبعَدَ آمالاً، وأعَدَّ عديداً، وأَكْثَفَ جنوداً، تَعَبَّدُوا لِلدُّنيا أيَّ تعبدٍ، وآثَرُوها أيَّ إيثارٍ، ثم ظَعَنُوا عنها بغير زادٍ مُبلِّغٍ، ولا ظَهْرٍ قاطِع... فهل بَلَغَكُمْ أنَّ الدنيا سَخَت لهم نفساً بفدية ٍ، أو أعانتهم بمعونةٍ، أو أحسنت لهم صُحْبَةً..."

ويُتابع - عليه السلام - محذراً منها قائلاً :" وأعانت عليهم رَيْبَ المَنُونْ، فقد رأيتم تَنكُّرها لِمَنْ دانَ لها، وآثَرَها وأخلَدَ إليها، حيثُ ظَعَنُوا عنها لِفراقِ الأبد... وهل زوَّدتهُم إلا السَّغَبَ، أو أَحلَّتَهم إلى الضنْكَ، أو نوَّرت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة! أفهذه تُؤثِرون، أم إليها تَطمئِنُون، أم عليها تحرِصون؟ فبِئْستِ الدارُ لِمَن يتهِمَّها ولم يكن فيها على وَجَلٍ مِنها، فاعلموا، وأنتم تعلمون، بأنهم تارِكُوها وظاعِنُون عنها...

مسؤولية رب الأسرة:

كلُّ فردٍ في الإسلام له دورٌ ومُهمةٌ وواجبٌ عليه القيامُ به.

كلُّ إنسانٍ في دين الله مسؤولٌ عن شيئ ما في الدنيا، ومسؤولٌ عن هذا الشيء. في الآخرة، يومَ يقومُ الناسُ لله تعالى ربِّ العالمين.

وربُّ الأسرةِ مسؤولٌ عن أُسْرَتِهِ، التي هي اللَّبْنَةُ في المجتمع، فإذا صلُحَتْ صلُحَ المجتمعُ، وإذا فَسدَتْ فَسُدَ المجتمع.

والأسرةُ كأنَّها دولةٌ إسلامية صغيرةٌ نموذجيةٌ، أو هكذا يجبُ أن تكون، وربُّ الأسرةِ هو الوَلِيُّ والقائِدُ لها، والراعي لأمورِها، يرعى الأطفالَ والزوجةَ والشبابَ وأمورَهم واحتياجاتِهم... وربُّ الأسرةِ وارعيها غيرُ معذورٍ، إذا قصَّرَ في شأنِها، أو تهاوَن في أمرِها. فهو الذي يرعي شؤون التربيةِ والتصرُّف والعلاقاتِ والصلاةِ والصومِ والدرسِ وفترةِ الطفولةِ والبلوغ والشبابْ... وبِكَلِمَة. فإنَّ مسؤوليةَ ربِّ الأسرةِ كبيرةٌ جداً، وهو محاسَبٌ عليها.

هو أيضاً الذي يكونُ نموذجاً لأسْرَتِهْ في أخلاقه وعباداته، وفي عاطفتِه ورحمتِه، وفي سهره وحنانه... وفي إرضاعه لهم مبادئ الإسلامِ الحنيف.... يقول مولانا الأميرُ في وصيَّتِهِ لأصحابه:" وكان رسول الله (ص) نصِباً تَعِباً بالصلاةِ بعدَ التبشيرِ له بالجنة، لقولِ اللهِ سبحانَهُ: { وَأْمُرْ أهلَكَ بالصلاةِ، واصطَبِرْ عليها } فَكَان يأمُرُ بِها أهلَهُ، ويَصْبِرُ عَلَيْهَا نفْسَهُ".

ويقولُ- عليه السلام - لمن فرَّغ نفسه للعبادة والتبتُّل، وترَكَ أهلَهُ وعِيالَهُ والقيامَ بِوَاجِبِهم ... ويقول - عليه السلام - " يا عُدَيَّ نفسِهِ، لقد استهام بك الخبيثُ! أما رَحِمْتَ أهلَك وولَدَك!"

وقال - عليه السلام - في بعض حكمه:" إنَّ للولد على الوالِدِ حقاً، وإنَّ للوالد على الولد حقاً ، فحقُّ الوالد على الولد أن يُطيعَهُ في كل شيءٍ، إلا في معصية اللهِ سبحَانَهُ، وحقُّ الولدِ على الوالِدِ أن يُحَسِّنَ اسمَهُ، ويُحَسِّنَ أدَبَهُ، ويُعَلِّمهُ القُرْآنَ"؟

وفي وصيَّتِه- عليه السلام - لابنه الحسن في ضرورة تحسين الخُلُق مع العيال، قال - عليه السلام -: " ولا يكُنْ أهلُكَ أشقى الخَلْقِ بك".

هذه صورةٌ عامةٌ وشاملةٌ حولَ المسؤوليةِ الشرعيةِ والعرفية والإنسانية المطلوبةِ من ربِّ الأسرة... لكنْ يبقى التحذيرُ من المبالغة في الاهتمام بشؤون الأسرة فوقَ الحدودِ المطلوبة وبطريقة مهووسة غير مدروسة، لأن هذا سيؤثر سلباً على البُنية التربوية، والمستقبليةِ للأولاد، فتظهرُ عليهم مظاهرُ الدلعِ والغنج والميوعة، وتُبنى شخصيتُهم على الاتكالية والتلكؤ والاعتماد على الآخرين والضعفُ الذي يظهرُ من الأهل تجاهَ الأولاد ... لماذا هذا الضعف؟ فإن كان الأولاد مؤمنين فالله أولى بهم... وإن لم يكونوا كذلك، فِلمَ الاهتمامُ بهم؟!.

قال الأمير لبعض أصحابه:" لا تجعَلَنَّ أكثَرَ الناس شُغْلَكَ بأهلِكَ ووَلَدِكَ: فإنْ يكنْ أهلُكَ ووَلَدُكَ أولياءَ اللهِ، فإنَّ الله لا يُضيعُ اولياءَهُ، وإن يكونوا أعداءَ اللهِ، فما همُّكَ وشُغْلُكَ بأعداءِ الله؟!.

هذه بعضٌ من آراء الأمير- عليه السلام - فيما يتعلق بمسؤوليات ربِّ الأسرة، تجاه أسرتِه، نسألُ الله تعالى التوفقَ والسدادَ...

الدين فوق القرابة:

في الإسلام حثٌّ وتأكيدٌ على صلة الرَّحِم, لا تجد لهما نظيراً في دين أو شريعة. فَصَلَةُ الرَّحِمِ أخذت حيّزاً هاماً من كتاب الله المجيد, ومن أحاديث النبي وأهل بيته الكرام, صلواتُ اللهِ عليهم أجمعين.

وَصِلَةُ الرحم, ونتيجةً لمَنْزِلَتِها وأهميَّتِها في الإسلام, لها أحكامٌ وأعرافٌ وفتاوى تتعلق بها, ولها تفاصيلُ وصورٌ عديدةٌ وكثيرةٌ, تُبيِّنُ كيف أنَّ الله تعالى لم يتركْ شيئاً من أمور البشر, ولو كان صغيراً بنظرهم, إلا وجعل له حكماً وحداً, وأدباً وسنة.

وبعد هذا التدليل على عظمة القرابة والأسرة في الإسلام, حتى كأنك تخالُ أن لا شيء فوقَها أو يوازِيها أهمية... بعد كل هذا تبقى مصلحةُ الإسلام ودينِ اللهِ الحنيف, وشَرْعِهِ المقدَّس فوق كلِّ اعتبار. فالإسلامُ يعلو ولا يُعلى عليه بشيء, قريباً أو حبيباً , أو أخاً أو أختاً... بل حتى لو كان أباً أو أماً أو أبناً....

إذا كان هناك خطرٌ مُحدقٌ بدين اللهِ الحنيف وشَرْعِهِ المقدس, والمطلوبُ صدُّ الأعزاء أو القرابة عن جريمتهم وبغيهم... فيجب ذلك ليبقى الإسلامُ فوق الجميع, وليُحْفظَ قبل سلامةِ الجميع...لأن الإسلام إذا حُفظ, حُفظ المسلمون وأرضُ الإسلام... واذا حُفظ المسلمون فقط, دونه, أصبح عُرْضةً للأهواء والمصالح الشخصية وحكمِ الفئة والعصبيَّة.

وفي إشارة وافيةٍ وناطقةٍ إلى ذلك, يصفُ أميرُ المؤمنين- عليه السلام - هذه الحقيقة الساطعة... يصفُ أصحابَ رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم - وقوةَ إيمانهم... يصفهُم يومَ صفِّين مُواجِهاً المشكِّكين والمُتَّهمين... يقول سلامُ الله تعالى عليه: "ولقد كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -, نقتُلُ آباءَنا وأبناءَنا وإخوانَنا واعمامَنا: ما يزيدُنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً, ومُضياً على اللقم وصبراً على مضض الألم, وجِدَّاً في جهاد العدو, ولقد كان الرجُلُ منَّا, والآخرُ من عدُوِّنا, يتصاوَلآنِ تصاوُلَ الفحلين, يتخالسان انفُسَهُما: أيهما يسقي صاحِبَه كأس المنونِ, فمرَّةً لنا من عدوِّنا, ومرةً لِعَدوِّنا مِنا, فلما رأى الله صِدْقَنا أنزل بعَدوِّنا الكبت, وأنزل علينا النَّصْر, حتى استقرَّ الإسلام مُلقياً جِرانَهُ ومتبوِّئاً أوطانَهُ, ولَعَمْري لو كُنَّا نأتي ما أتَيْتُم, ما قام للدِّين عمودٌ, ولا أخضرَّ للإيمان عودٌ ...".

لقد بيَّن لنا - عليه السلام - أنَّ قَتْلَ أعزِّ الناسِ أحياناً, كالأب والأخ وأمثالِهم, لنُصْرِة الإسلامِ, واجبٌ مطلوبٌ, ولا ضيرَ في ذلك.

وها هو في موضعٍ آخر, يؤنِّبُ أحَدَ وُلاتِه على تهاوُنِهِ في حقوق الناس وأموالهم, ويتعجب - عليه السلام - منه, كيف أنه يستسيغُ طعاماً وشراباً وهو يعلَمُ أنه يأكلُ حراماً من أموال اليتامى والمساكينِ والمؤمنينَ... ثم يُهَدِّدُهُ بالسيف الذي ما ضرب - عليه السلام - به أحداً إلا دخل النار، وأنه لن يتهاونَ - عليه السلام - في ذلك ولو كان مع الحسن والحسين.

يقول - عليه السلام - "ووالله لو أن الحسَنَ والحسينَ فعلا مِثْلَ الذي فعَلْتَ، ما كانتْ لهما عندي هوادة، ولا ظفِرا مِنِّي بإرادة، حتى آخُذَ الحقَّ منهُما، وأُريحَ الباطلَ عن مَظْلَمَتِهِمَا".

ويقول - عليه السلام - في بعض حكمه:" إنَّ وليَّ محمدٍ مَنْ أطاعَ الله، وإنْ بعُدَت لُحْمتُهُ، وإنَّ عدوَّ محمَّدٍ مَنْ عصى الله، وإنْ قَرُبَتْ قرابَتُه".

بذلك تكونُ خلاصةُ ما تقدم أنَّ حُرَم الإسلام أولى من تعظيم القرابات والعشيرة، وإنَّ حِفظَ الإسلام مُقدَّمٌ على كلِّ شيء.

التعليم في الصِغر:

... لا تتصوّر يا أخي كم هي أهميَةُ التعليم في الصِغر... ولا تتصور كم هو أثرُ التهذيب والتربيةِ والتأديب والتعليم في السنوات الأولى من العمر، خاصة قبل البلوغ، حيث تكون النفسُ خاليةً فارغةً من أيِّ فكرةٍ أو عادةٍ أو انتماءٍ أو ملَكَةٍ ... أللَّهم إلا من طِباع الفطرة السلمية، التي هي في الحقيقة تُساعد على تقويم المرءِ وترشيده عند كِبَرِه.

***

... فالصغير يتعلَّمُ بسرعة ويتأثر بسرعة، ونفسُهُ غيرُ مسبوقةٍ بشيء، وهمُّه قليل، ومسؤوليَّتُه يسيرة، وطموحُهُ كبير، وصفاوُهُ حاضرٌ...لم يُلوَّثْ بنفسياتِ الناس السيِّئة، من طمعٍ وضررٍ وغَيْرةٍ وحسدٍ وقساوة قلبٍ،... هو خالٍ من كل ذلك، بِها قبل غَلَبَةِ الهوى، وإغراءاتِ ، الدنيا، وانصرافِ العقل إلى المكرِ والخديعة.

... وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه سلامُ الله تعالى في وصيَّتِهِ لابنه الحسنْ" أي بُنيَّ، إنِّي لَمَّا رأيتُني قد بلغْتُ سِناً، ورأيتُني أَزْدادُ وَهْناً بادرتُ بوصيَّتي إليك، وأَوْرَدْتُ خصالاً منها، قبلَ أن يعجل بي أجلي دون أن أُفْضيَ إليك بما في نفسي، أو أن أُنْقَصَ في رأيي، كما نُقِصْتُ في جسمي، أو يَسْبقني إليك بعضُ غلبات ِ الهوى، وفِتن الدنيا، فتكونَ كالصَّعْبِ النَّقور، وإنَّما قلبُ الحَدَثَ كالأرضِ الخالية، ما أُلْقِيَ فيها من شيء قَبِلَتْهُ، فبادَرْتُكَ بالأدبِ قبل أن يقسُوَ قَلبُكَ، ويَشْتَغِلَ لُبَّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِ رأيك من الأمر، ما قد كفاك اهلُ التجارب بُغْيَتَهُ وتجْرِبَتَهُ ، فتكونَ قد مؤونَةَ الطَّلبِ، وعُفيتَ من علاج التَّجرِبَةَ...".

... في معْرِضِ إظهار حرصه وحنانِه على ابنه - عليه السلام - يُظهرُ الحُبَّ والشفقة والحرص على التأديب في أول العمر، فالنية سليمةٌ، والنفسُ خالية، والروح مقبلة.... ولا ننسى أن هذه الوصية أيضاً موجهة لنا نحن الأبناء الروحيين لعلي بن أبي طالب -

عليه السلام - حيث يقول:"... ورأيتُ حيثُ عناني من أمرِكَ ما يعني الوالِدَ الشفيق، وأجمعتُ عليه من أدبكَ، أن يكونَ ذلك، وأنت مقبل العمر، ومقتبل الدهر، ذو نيةٍ سليمة، ونفسٍ صافية...".

ومن أهم ما يجب تعليمه للصغير في أوَّل عمره, الأخلاقُ الحسنةُ الكاملة، وحسنُ المعاشرة, والأدبُ, والأعرافُ الاجتماعيةُ المحدودة, والعاداتُ الشائعةُ المشكورة, وأن نُعلِّمه علومَ القرآنِ المختلفة, وشرائعَ الإسلام, وأحكامَه, وفقهَ محمدٍ وآلِ محمدٍ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم أجمعين... وأن نُعلّمَهُ الحلالَ والحرامَ, والخيرَ والشر, والحسنَ والقبيح, والضارَّ والنافع.. وكلَّ ما له مدخليَّةٌ في سعادتِه الدُنيويةِ والأُخروية.... ورضوانٌ من اللهِ أكبر...

يقول - عليه السلام - في بعض حكمه:" ولا ميراثَ كالأدب".

ويقول - عليه السلام -:" وحقُّ الولد على الوالدِ أن يُحسِّنَ اسمَهُ, ويُحسِّنَ أدَبَهُ، ويُعلِّمَهُ القرآن" .

وفي حكمة له - عليه السلام - يقول : العلمُ وراثةٌ كريمة , والآداب حُلَلٌ مُجدَّدةٌ".

ويقول أيضاً:" يا كُميلُ, مُرْ أهلَكَ أن يروحوا في كسب المكارم, ويُدْلجوا في حاجةِ مَنْ هو نائم . . .".

هذه مقتطفاتٌ فيما يجب أن يُربَّى عليه الأبناء, وفيما يجب أن يُعلَّموه... وكم نحن بحاجةٍ للتأمل والتفكر تقدَّم بعيداً عن الأفكار الغربية والغريبة, والمخالفةِ للفطرة السليمة, والطريقةِ القويمة...

العاقل في الاسلام :

يحسَبُ أكثرُ الناسِ أن العاقِلَ مَنْ تعلَّم أو تثقَّفَ أو تفقَّهَ أو كَثُرَ كلامُهُ ونُطْقُهُ ومُصطلحاتُهُ الغريبة, ونظرياتُهُ العجيبة!...

ولكنّ العاقلَ في الإسلام مَنْ عقَّلَ أمرَ دُنْياهُ وآخِرتِهِ, وعمل بالطاعة والمصلحة السلوكية, وكان شديدَ التمسُّك بدين الله, لا تغُرُّهُ الدُنْيا ولا الناس, عن نهج الحق والحقيقة.

وليس العاقلُ من كثُرت شهاداتُهِ, وازداد علمُهُ, وعلا مَنْصِبُهُ, وكان له سلطةٌ وسلطان... إنْ لم يقرِنْ ذلك بالعمل... وتحصيلِ مرضاة الله جلَّ وعلا , مُتنكِّباً عن الحرام, مُتجنِّباً الآثام, والقبيحَ من فِعلِ الأنام.

فالتعقُّلُ فعلٌ قبل كلِّ شيء, وعملٌ ونهجٌ وطريقةُ حياةٍ وأسلوبُ معاش... يقول مولانا الأمير سلام الله عليه: "قاتِلْ هواكَ بعقلك".

وقيل له - عليه السلام - : "صف لنا العاقل, فقال - عليه السلام - :" هو الذي يضعُ الشيءَ مواضِعَه", فقيل : فصِفْ لنا الجاهِلَ, فقال: " قد فَعَلْتَ".

وكما يظهر من كلامه - عليه السلام - أنه يقصدُ بذلك أن الجاهل هو الذي لا يضع الشيء مواضعه.

فالعاقل مؤدَّبٌ قبل كلِّ شيء, ومُتعِظٌ دائماً, وخلوقٌ ابداً ... لأنه إنْ لم يكن كذلك سمح للغضب وسوءِ الخُلُقِ بالتسلل إلى نفسه...

وهذا هو الجهلُ بعينه, كما يقول سيِّدنا الأمير - عليه السلام -:"لا ترى الجاهِلَ إلا مفْرطاً أو مُفرِّطاً ".

... ويقول في رسالته لابنه الحسن - عليه السلام -:" ولا تكوننَّ ممن لا تنفَعُهُ العِظةُ إلا إذا بالَغْتَ في إيلامه، فإنَّ العاقِلَ يتَّعِظُ بالآداب، والبهائِمَ لا تتَّعِظُ إلا بالضَّرْب.

... ويقول في حكمة له - عليه السلام -:"ومَنْ نظرَ في عيوبِ الناس، فأنْكَرها، ثُم رَضِيَها لنفسه، فذلِكَ الأحمقُ بعَيْنه،... ومَنْ عَلِمَ أنَّ كلامَهُ مِنْ عملِهِ، قَلَّ كلامُهُ إلا فيما يَعْنيه".

***

... أخي، أيُّها الكريمُ... فِعْلُكَ يدُلُّ على عقلِكَ ومقدارِ رَجاحَتِهِ... وعملُكَ يُشير الى فَهْمِكَ، والموقفِ مِن الهوى والطمع وشأنِ الدنيا... ولا شكَّ أن بعضَ الأفعال والأعمالِ تُضْعِفُ العقلَ، وتمجُّ منه مجاً، كما تشير إلى ذلك النصوص الكثيرةُ، ومنها ما ورد عن

الأمير - عليه السلام - في قوله" أكثَرُ مصارِعِ العُقولِ، تحتَ بُروقِ المطامع". وقوله - عليه السلام -:" وكمْ من عقلٍ أسير، تحت هوَىَ أمير".

... وفي المتعَلِّقِ بالدنيا يقول- عليه السلام -:"قد خرقَتِ الشهواتُ عَقْلَهُ، وأماتتِ الدُنْيا قلبَهُ، ووَلِهَتْ عليها نفسُهُ، فهو عبدٌ لها".

... وفي العُجْبِ والغرور، يقول- عليه السلام -"عُجبُ المرءِ بنفسه،أحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ".

... وفي الختام يتبيَّن معنا قلةُ العقلا بحسب مفهومنا الإسلامي الأصيل، فرُبما دخَلْتَ جامعةً أو مَجْمعاً فيه آلاف المتعلِّمين، ولا تجدُ فيه عقلاءَ إلا بعددِ أصابع اليد فإن رواة العلم كثي، ورُعاته قليل، وربُما تجدُ خطيباً أو متكلِّماً أو نِحْرِيراً في العلم... قد غرق في المعصية، فأين مكانةُ العقلِ منه، وأين هو من العقلاء وسلوكهم؟!.

... قال ربي تعالى، في مُحكم التنزيل: (كذلك نُفصِّل الآيات، لقوم يعقِلون) وقال سبحانه : (إنَّ شَرَّ الدوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّم البُكْمُ الذِيْنَ لا يَعْقِلُوْن).

العقلُ: طاعة الله وسبيلُ الآخرة :

... "أين العُقولُ المستَصبِحَةُ بمصابيح الهُدى، والأبصارُ، اللامِحَة إلى منار التقوى! أين القلوبُ التي وُهِبَتْ لله، وعُوقِدَتْ على طاعة الله! ازدَحَموا على الحُطام، وتشاحُّوا على الحرام، ورُفِعَ لهُمْ عَلَمُ الجنَّةِ والنَّار، فصرَفوا عن الجنة وجوهَهُمْ، واقْبلوا إلى النار بأعمالهم، ودعاهُمْ ربُّهُم فَنَفَروُا وَوَلَّوْا، ودعاهُمُ الشيطانُ فاستجابوا واقْبلوا!.

بهذا الكلام الأميري، خاطَبَ عليٌّ- عليه السلام - أهلَ الضلالةِ، مُسْتنكراً عليهم فِعلَهم، فأين أنتم من مصابيح الهدى؟ وقليلٌ هم العارفون، وأين أنتم من منار التقوى؟ وقليل هم الواصلون... فالواصلون هم أهلُ الطاعة وأهلُ السلوكِ إلى طريق الهدى، هم العقلاءُ الحقيقيون، ولا عُقلاءَ وراءَهُم، فطوبى لهم وحسن مآب.

... العاقل هو المسترشد، والمستفيدُ من التجارب، والمتعظ بما حولَهُ وبمن معه، يقول الأمير- عليه السلام -: "كفاك من عقلك ما أوضَحَ لك سُبُلَ غَيِّكَ من رُشْدِكَ.

... ويقول - عليه السلام - في رسالته إلى ابي موسى الأشعري:"...فإنَّ الشَّقيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ ما أُوتيَ من العقلِ والتَّجْرِبةَ...".

... وَوَرَدَ في قول مؤثرٍ له - عليه السلام -:"....فإنَّ الغايةَ القيامةُ، وكفى بذلك واعظاً لِمَنْ عَقَلَ، ومُعْتَبَراً لمَنْ جَهِلَ!".

فالعاقل هو الذي يَعْرِفُ إلى إين يُسارُ به، ويعرِفُ أن مصيره إلى يوم لا مفرَّ منه، وإنَّ المُلْتقى إلى الله ربِّ العالمين... فيغلبُ نفسَه أي شهوَتَهُ، وما يتطلَّبُهُ ذلك من علمٍ ومعرفةٍ وعملٍ ومجاهدةٍ ومعاناةٍ.... ولولا ذلك ما نَفَعَهُ عقلُهُ، وما أغناهُ عملهُ، والأمورُ واضحة لك إنسان... فالبعضُ يكونُ وِعاءً للعلم، فقط، وليس هناك شيئٌ آخر، والبعضُ، وهم أهلُ الحقِّ، يسمعون ليعلموا ويُحْسِنون أداء حقِّ العلم الذي عقِلوه.

... يقول الأمير، ولا أمير غيره، - عليه السلام - ...يقول في آل محمد - صلى الله عليه وسلم -" عقلوا الدِّين عَقْلَ وِعايةٍ ورعاية، لا عَقْل سَماع ورِوايةٍ، فإنَّ رُواةَ العلمِ كثيرٌ ورُعاتَهُ قليل".

... وينصح- عليه السلام - بتقوى الله تعالى فيقول:" فاحذروا عِبادَ اللهِ، حَذَرَ الغالِبِ لنفسه،المانعِ لِشَهْوتِهِ، الناظِرِ بعَقْلِهِ، فإنَّ الأمرَ واضِحٌ، والعَلَمَ قائمٌ، والطريق جَدَدٌ، والسبيلَ قَصْدٌ".

الباب الثاني
في الأخلاق

أئمتنا قُدوتُنا:

... أخي الكريم، المتأملُ والباحث والدارسُ لسيرة الأئمة - عليه السلام - يراهم كجدهم النبي - صلى الله عليه وسلم - في أسلوب عيشهم وطريقةِ مَعاشِهِم المتوَّجَةِ بالعِفَّة والقناعة والرضا والاكتفاء والزهد والانصراف عن التعلق بالدنيا وقتالِ الآخرين من أجلها... والأئمة - عليه السلام - قُدوةٌ وأسوةٌ للعالمين، وللمسلمين خاصة، وهم عمودُ الدين، ومنارةُ السالكين، وحَريٌّ بالمؤمنين الصادقين أن يتأسَّوا بهم في أسلوب عيشهم وقلة حرصهم على الدنيا... وهكذا يجب أن يكون العلماءُ والمتعلِّمون وأهلُ الصدارة في المجتمع، ومَنْ كان محطاً لأنظار الناس، حتى نكون دُعاة بغير ألسِنَتِنا.

... هذه الفئة، معلومٌ أنها قليلةٌ عدداً، ولكنَّها عظيمةٌ في قَدْرِها عند بارئِها، تبارك وتعالى، تماماً كما كان أئمتنا- عليه السلام -....هؤلاء أوتادُ الله في الأرض... وأمثلةٌ شبيهةٌ لأشباههم... وقدوةٌ للمحيطين بهم ... إنهم المحافظون على سنن الأنبياء والصديقين - عليه السلام - ...وقد باتوا اليوم أُسْوةً لاحقين كما كان أولياءُ الله من قبل، لهم قدوة.

***

... عجباً لأمرهم: قبِلوا ما رفضه الناس، واستَسهلوا ما استصعبوه، ورضوا بما رفضوه... قَبِلوا بصعوبة العيش في خشونة المطعم والمَلْبَسِ معاناةِ السَهَرِ والصَبْرِ والصيام والالتزام... لقوة اليقين عندهم وحلاوة العِرْفان في أنفسهم.

... عجباً لأمرهم من كل هذا... بل لا عجب ، فأبدانُهم وإن كانت تُجاوِرُنا في الدنيا إلا أن أرواحهم مُعلَّقةٌ بالمحل الأعلى لما عرفتْ من جمال الحضرة الربوبية، بعين بصيرتها، ولاستئناسهم بصحبة ملائكة الله المقربين.

... طوبى لهم، فهم خلفاءُ الله في أرضه، والدعاةُ إلى دينه، والقِبْلةُ السلوكيةُ لغيرِهِم جباهِهم، وسكون عيونهم، وصواب منطقهم... ثم إستوثَقَ من طمأنينة جنانهم.

... يقول الأمير - عليه السلام - في أفصح ما نُقل عنه- عليه السلام -:... وكَم ذا، وأين أولئك؟ والله، الأقَلُّون عدداً، والأعظمون عند الله قَدْراً، يحفظُ الله بهم حُجَجَهُ وبيّناته، حتى يُودِعُها نُظراءَهم، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استَوْعَرَه المُترَفون، وأنِسُوا ما استوحَشَ منه الجاهلون، وصَحِبُوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلَّقَةٌ بالمحل الأعلى، أولئِكَ خلفاءُ اللهِ في أرضه، والدعاةُ إلى دينه، آهٍ آهٍ شوقاً إلى رؤيتهم!".

... أخي الكريم نور عيني، هل نستطيعُ أن نكتفي ببعضِ ثياب وقليل طعام، وأن لا نَدّخِرَ مالاً، ولا نحوزَ من الأرض شِبراً؟!... إذا كان خلال ذلك خطراً على الورع والاجتهاد والعفة والسداد... قليل ما هم يا أخي،... وكاتب هذه السطور ليس منهم- فنقل العلم شيء، والعملُ به شيءٌ آخر.

... حتى مع القدرة على ذلك، ينبغي الامتناعُ عن ذلك، إذا كان المكلَّفُ والمقصودُ أستاذاً لغيره، أو ذا منصبٍ منظورٍ ومقصود.

... يقول أمير المؤمنين - عليه السلام - : ما المجاهد الشهيد في سبيل الله، بأعظم أجراً مِمَّنْ قَدَرَ فعفَّ، لكادَ العفيفُ أن يكون مَلَكاً من الملائكة".

... ويقول الأميرُ - عليه السلام - أيضاً:" ألا وإنَّ إمامكُم قد اكتفى من دُنياه بِطِمْريْه، ومن طُعْمِه بقرْصيهْ، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكنْ أعينوني بورع واجتهاد، وعِفَّةٍ وسَدَاد، فوالله ما كنزتُ من دُنْياكُمْ تِبراً، ولا ادخَرْتُ من غَنائِمِها وَفْراً، ولا أعددتُ لِبالي ثوبي طِمْراً، ولا حُزتُ من أرضِها شِبراً...".

... ويُتابعُ - عليه السلام - قائلاً"... ولو شئتُ لاهتدَيْتُ الطريقَ إلى مُصفّى هذا العسل، ولُبابِ هذا القمح، ونسائجِ هذا القزّ، ولكِنْ هيهات أن يَغْلبني هوايَ، ويقودَني جشعي إلى تخيُّر الأطعمة، ولعلَّ بالحجاز أو اليمامةِ، مَنْ لا طَمَعَ له في القرص، ولا عهد له بالشِّبَعِ، أو أن أبِيْتَ مبْطاناً وحولي بطونٌ غَرْثى، وأكبادٌ حرَّى،... أأقنع من نفسي بان يُقال: هذا أميرُ المؤمنين، ولا أشارِكُهُم في مكارِهِ الدَّهَر، أو اكُونُ أسْوَةً لهم في جُشوبَةِ العيش!....".

القُدوة الحسنة في تواضُعِها:

التواضعُ حفةٌ عند كل البشر، سالِفِهم ولا حِقِهِم. والناس بطبعهم يتعاطفون ويتعلَّقون بمن تقرَّب منهم، وتواضع لهم، وخدمَهم وماثَلهم في شؤون حياتهم، وقاسمهم همومَهم وأتراحَهم فلا يجدون فرقاً بينهم وبينه في الملبس والمسكن والماكل والمشرب...

... لذا، كان حضورُ التواضع الفطري في حياة أهل الإيمان والصلاة مُلازماً لحركتهم اليومية مع الناس... وتميَّزَ بذلك الأنبياءُ واتباعُ الأنبياء - عليه السلام - ذلك أنّ المتتبعَ لسيرتهم - عليه السلام - لا يجدُ موردِاً واحداً من موارد التكبر والإستعلاء في حياتهم... فهم أقربُ الناس ِ إلى الفطرة ِ السليمة والطبع القويم...

... وكيف لا يكون ذلك، وهم دعاةُ الله تعالى إلى هداية البشر...وأدنى نظرةٍ إلى سيرتهم- عليه السلام - ولسوكِهم اليومي تُظهرُ محبوبيتهم إلى قلوب الناس، وتواضُعَهم الذي لا نظير له...

... ولعلَّ من أفضل النصوص وأدقها تعبيراً في ذلك، ما جاء عن أمير المؤمنين - عليه السلام - في نهج البلاغة حيث قال - عليه السلام -: "ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كافٍ لَكَ في الأُسْوَةِ، ودليلٌ على ذمّ الدنيا وعَيْبِها وكَسرَرَةِ مخازِيْها، إذْ قُبِضَتْ عنه أطرفها، ووُطِّنَتْ لِغَيْره أكنافُها وفُطِمَ عنْ رَضَاعِها، وزُوِيَ عن زخارِفها".

***

... "وإن ثنيّت بموسى كليم الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول: { ربِّ إنّي لِما أنْزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير } والله، ما سأله إلا خُبْزاً يأكُلُهُ، لأنه كان يأكُلُ بَقْلَةَ الأرض، ولقد كانَتْ خُضْرَةُ البَقْلِ تُرى من شفيف صِفاق ِ بطْنِه، لِهُزالِه وتَشَذُّب لَحْمِه.

... "وإن شِئْت بداود - صلى الله عليه وسلم - صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يَعْملُ سَفَائِفَ الخُوْصِ بيده، ويقولُ لجُلسَائه: أيُّكُمْ يكفيني بَيْعَها! ويأكلُ قُرصْ الشعير ثمنها".

... "ولو شئت قلت في عيس ابن مريم - عليه السلام -، فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجشِبَ، وكان إدامُهُ الجوع، وسِراجُهُ بالليل القَمَر، وظِلالُهُ في الشتاء مشارِقُ الأرضِ ومغارِبُها وفاكهتُهُ وريْحانُهُ بالليل ما تُنْبِتُ الأرضُ للبهائم، ولم تكن له زوجةٌ تَفْتِنُهُ، ولا وَلَدٌ يُحْزِنُهُ، ولا مالٌ يَلْفِتُهُ، ولا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دابَّتُهُ رِجْلاه، وخادمهُ يداه!".

... ثم يعودُ اميرُ المؤمنين - عليه السلام - ليُفصِّلَ في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وتواضِعه تفصيلاً دقيقاً، فيقول - عليه السلام -:"فتَأسَّ بنبيِّكَ الأطْيَبِ الأطْهَرِ - صلى الله عليه وسلم - فإن فيه أُسْوَةً لِمَنْ تأسَّى، وعَزاءً لِمَنْ تعزَّى، وأحَبُّ العِبادِ إلى الله المُتأسّي لنبيّه، والمُقْتصُّ لأثَرِه، قَضَم الدنيا قضماً ولم يملأ فمه منها، ولمْ يُعِرْهَا طَرفاً، أهضَم أهلِ الدنيا كَشْحاً، وأكثر أهل الدنيا جوعاً، وأخمَصهُمْ من الدنيا بطناً، عُرِضتْ عليه الدنيا، فأبى أن يَقْبَلَها، وعَلِمَ أن الله سبحانه أبْغضَ شيئاً فأبْغَضَهُ، وحقَّر شيئاً فحقَّوه، وصَغَّرَ شيئاً فصغَّره، ولو لم يكن فينا إلا حُبُّنا ما أبغض اللهُ ورسوُلُه، وتَعْظِيمُنَا ما صَغَّر اللهُ ورسولُهُ، لكفى به شِقاقاً لله، ومُحادَّةً عن أمرِ الله، ولكن كان - صلى الله عليه وسلم - يأكلُ على الأرض، ويجلِسُ جِلْسَةَ العَبْدِ، ويَخْصِفُ بيده نعلْلَهُ، ويَرْقَعُ بيده ثوبَهُ، ويَرْكبُ الحمارَ العاري، ويُرْدف خلْفَه، ويكونُ السِّتْرُ على باب بيته فتكونُ فيه التصاويرُ فيقول: يا فُلانةُ،(لإحدى أزْواجِهِ)، غيِّبِهِ عَنِّي، فإني إذا نظرتُ إليه ذكرتُ الدنيا وزخارِفهَا، فأعرَضَ عن الدنيا بقلبه، وأماتَ ذكْرَهَا من نفسِهِ، وأحبَّ أن تَغيبَ زينتُها

عن عينِه، لكِيلا يتَّخِذَ منها رياشا، ولا يَعتَقِدِهَا قراراً، ولا يَرْجو فيها مُقاماً، فأخْرَجهَا من النَّفْسِ، وأشخَصَها عن القلب، وغيَّبها عن البصر، وكذلك من أبغضَ شيئاً أبغضَ أن يَنْظُر إليه، وأن يُذْكَرَ عِنْدَهُ".

... "ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يدُلُّكَ على مَساوِئِ الدُنْيا وعُيوبِها: إذْ جاع فيها مع خاصته... فَلْيَنْظُرْ ناظرٌ بعقله: أكْرَمَ الله محمداً بذلك أم أهانَهُ! فإنْ قال، أهانَه، فَقَدْ كَذَبَ، واللهِ العظيم، بالإفك العظيم، وإنْ قال الناس منه... فإنَّ الله جعل محمداً - صلى الله عليه وسلم - علَماً للساعة، ومُبشِّراً بالجنة، ومُنْذِراً بالعقوبة، خرج من الدنيا خميصا، وورد الآخرة سليماً، لم يَضَعْ حَجَراً على حَجَر، حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربِّه، فما أعْظَمَ مِنَّة اللهِ عندنا حيثُ أنْعَمَ علينا به سلفاً نَتَّبِعُهُ، وقائداً نطأُ عَقِبَهُ.

... وبعد فهذه نماذجُ عن تواضع الأنبياء- عليه السلام - خاصةً نبيَّنا محمداً - صلى الله عليه وسلم - ...فهل مَنْ يتشرف بالإقتداء والإتباع؟!...

وجوب الشكر:

... يشعر الإنسان شُكْرِ مَنْ أَحْسَنَ إليه أو قدَّم له خدمة، أو سهَّل أمراً، أو احترمه وقدَّره.... مهما كان صغيراً.

... والشكر لله تعالى، الذي لا يُقاس بعباده، صفةٌ من صفات الأولياء، الذين يشكرونه تبارك وتعالى على نعمٍ لا تُحصى، وعطايا لا يُحيطُ بها عقلٌ بشري، ولو أردتَ الإحاطةَ على بِنِعَمِ الله عز وجل عليك، لتعذَّرَ ذلك واْستحال إذا كنت منصفاً في إرادتك هذه.

... ومَنْ ذا الذي أحصى هِبَاتِ الله تعالى إليه... من نعمة التوحيد الإيمان، إلى التشهد والإسلام، إلى التدين الإلتزام، إلى الإمتناع عن معاصي، فالتوفيق إلى الصلاة والصيام والصدقة وخدمة الآخرين... إلى سكينة والأمن وهدوءِ البال... إلى نعمةِ العقل والإدراك، والصحة القوّة، وسلامة البدن والأطراف... إلى نعمة النظر والسمع واللسان، إلى نعمة الأهل والأولاد والإخوان... إلى نعمة المأوى والرزقِ الحسن والأمنِ في الوطن والنجاة من الهلاك... إلى ما هنالك من نعمٍ وافرة نعجِز عن إدراكها فضلاً عن أستقصائها.

***

... أفلا يجدُرُ بنا أن نشكُرُ ربَّنا وبارِئنا... كما نشعر بذلك تجاهَ خلقٍ مثِلنا...واللهُ تعالى لا يُقاس بشيء قط.

... هذه المسألة الهامة والحساسة، وتأثيراتُها على النفس والمنطلقات الروحية... قد أخذتْ وافراً من كلام علي أمير المؤمنين - عليه السلام - في نهج البلاغة...

... ومما قاله - عليه السلام -:" لا تَنْسَوا عند النِعَم شُكَركم" . وقال - عليه السلام - "إذا وصَلَتْ إليكم أطرافُ النعم، فلا تُنفِّروا أقصاهام بقلة الشكر".

... فنحن نلاحظ أنه قد أوجب علينا الشكر على النعمة لتدوم وتستمرَّ، لأن أقصاها، والمُنتَظَرَ منها الذي لي يصل، مُرْتبطٌ بأطرافها الواصلة، ودوامُ الشكر يستلزمُ دوامَ النِعمِ وكَثْرَتَها، وفي هذا إشارةٌ، لقوله تعالى (لإن شكرتُمْ لأزيدنَّكم، ولئن كفرتم إنَّ عذابي لَشَديد).

... ومن دواعي الشكر أيضاً، يا أخي، تركُ المعاصي، لأن الشكر الصادق والحقيقي إنما يكون بالأقوال والأفعال، بل هو بالأفعال أهمُّ وأثبتُ وأصدقُ، ومِنْ أبرز مظاهره تركُ المعصية، لأنك لا يُمكنُ أن تتصور شاكراً وهو في الوقت نفسه عاصٍ والعياذ بالله.

... ويشيرُ الأمير- عليه السلام - إلى أنَّ الله تعالى لو لم يتوعدْ وَيَنْه عن المعصية لكان يجب تركُها شُكراً وحمداً وتقديراً له وتعالى، أي كمظهرٍ وتعبيرٍ عن الشكر، فكيف وقد توعَّدَ على ذلك سبحانه؟! يقول - عليه السلام -:"لو لم يتوعَّدِ اللهُ معصِيتَهِ لكان يجب أنْ لا يُعْصى شكراً لنعَمِهِ".

... ومن دواعي الشكر أيضاً، وصولُ المرءِ إلى مبتغاه، ونجاحهُ في عمله وفلاحهُ في هدفه ومقْصَدِه، وهدايَتُهُ إلى رُشْدِهِ... وأنا مَنْ أنا في الذنوب في كل يوم. يقول الأمير- عليه السلام - ":إذا أنتَ هُدِيتَ لقَصْدِك، فكنْ أخْشَعَ ما تكونُ لربك".

... ومن صفات أهل الإيمان والتُقى، وفي كل الحالات، الشكرُ والحمدُ، خاصة ً في أوقات توفُّر وسائل الترفِ والراحة، حيث إنَّ اكثر الناسِ في مثل هذه الحالات، يَنْسون أو يَسْهون أو يَغْفُلون... ويتلهَّون بما أحاط بهم ولا يذكرون الله تعالى إلا في وقت الشدة... هذا من بطرِ النعمة، والعياذ بالله.

... ويقول عليّ - عليه السلام - في نهج البلاغة": أُصيكم أيُّها الناسُ، بتقوى الله، وكثرةِ حَمْدِهِ على آلائه إليكم، ونَعْمائِهِ عَليكُمْ، وبلائِه لَدَيْكم، فكم خَصَّكُمْ بِنعْمَة، وتداركم برحمةٍ! أعْوَرْتُم له فستركُم، وتعرَّضتُم لأخذه، فأمْهَلَكُم".

... وقال - عليه السلام - عن المؤمن والتقي:" وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور".

... وقال - عليه السلام - :نَسْألُ الله سبحانه أنْ يَجْعَلَنا وإياكُم مِمَنْ تُبْطِره نِعمة ٌ، ولا تُقصَّرُ به عن طاعة ربِّه غاية ٌ، ولا تَحُلُّ به بعدَ الموتِ ندامة ٌ ولا كآبة ٌ".

... ونُذْكِّرُ ختاماً، بدواعي الشكرِ، وهي: النِعَمُ، ودوامُ النِعم، والنجاح، وتركُ المعاصي، والتفضيلُ على الغير.

حقيقة الزهد:

الزهد صفة مطلوبة جرى التأكيد عليها في النصوص الشريفة، والزهدُ سلوكٌ وعملٌ ملازمٌ لصاحبه... ومُدِحَ الأنبياءُ وأتباعُ الأنبياء - عليه السلام - عندما كان الزهدُ لهم مَلَكَة ً نفسيَّة ً ملازمة ً لشخصهم، ولا تنفك عنهم.

... والأكثريةُ من الاس يظنون أن الزهد كناية ٌ عن البؤس والفَقْر والجوع والحاجة وسوء التدبير ولباسٍ ممزقٍ مُتَّسِخْ... فمن ملكَ والجوع والحاجة وسوء التدبير ولباسٍ ممزقٍ مُتَّسِخْ... فمن ملكَ هذه الصفات، كان زاهداً !!!.

... وهذه شُبْهَةٌ عظيمة ٌ لا يقع فيها منْ عرَفَ شيئاً من طبيعة الإسلام الداعية إلى النظافة والتدبر والأكتفاء الذاتي وصونِ الكرامة والعيشِ الكريم.

فيُمكنُ أن يكونَ المرءُ غنيَّاً وملاكاً ، وفي الوقت عينه زاهداً. ويُمكِنُ أن يكون فقيراً غير ميسور، لا يجدُ قوت يومه، وفي نفس الوقت لا يكونُ زاهداً.

... هذا ما أَثْبَتَهُ علماءُ الأخلاق والسلوك، مع حقائق أخرى كثرة، لا مجال لذكرها كلَّها، حتى لا نخرج عن موضوعنا الأساسي... وقد نتطرقُ إلى بعضها فيما بعد.

... فالزهدُ ليس رهبنة ً، كما يُحِبُّ البعضُ أن يُصوِّره كذلك، جهلاً منهم بحقيقته، أو تأثراً بالأفكار الدخيلة، والبدع المقيتة. فقد دخل أميرُ المؤمنين - عليه السلام - على العلاء بن زياد الحارثي، وهو من أصحابه، يعوده في مرضه، فلمَّا رأى سَعةَ داره، قال:" ما كُنْتَ تَصْنَعُ بسعةِ هذِهِ الدارِ في الدنيا، وأنت إليها في الآخرة كنتَ أحْوَجَ؟".

... لكن، وحتى لا يُفهمَ الكلامُ على ظاهره من الاستفهام والتوبيخ والإنكار...عَاجَلَ - عليه السلام - كلامَه، وقال:" بلى إنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بها الآخِرَة: تَقْري فيها الضيفَ وتصِل فيها الرَّحِمَ، وتُطْلِعُ منها الحقوق مَطَالِعَهَا، فإذا أنت، قد بَلَغْتَ بها الآخرة".

... فقال له العلاء: يا أميرَ المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصمَ بن زياد، قال وما له؟ قال: لِبسَ العباءَةَ وتخلَّى عن الدنيا، قال - عليه السلام -: عليَّ به، فلما جاء قال الأمير - عليه السلام - :" يا عُدَيَّ نفسه!، لقد استهام بك الخبيثُ!، أما رحِمْتَ أهْلَكَ ووَلَدَك!، أترى الله أحلَّ لك الطيِّبات، وهو يكرَهُ أنْ تأخُذَها أنتَ أهونُ على الله من ذلك!".

... قال الرجل: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونةِ ملبَسِك، وجُشوبةِ مأكَلِكَ!.

... فقال - عليه السلام -:"وَيْحَكَ، إني لستُ كأنت، إنَّ الله تعالى فرض على أئمة العَدْل، أنْ يُقدِّروا أنفسهم بضَعفَةِ الناس، كيْلا يَتَبيَّغ بالفقير فَقْرُهُ".

... فالأميرُ- عليه السلام - بيَّن أمروراً عديدة في هذا النص حول حقيقةِ الزهد، كاشفاً اللثام عنها، مُبْعِداً الشبهات عن ساحتِها... ومما بَيَّنَهُ:

... أولاً: أن يتعوَّد الإنسانُ، محاسبةَ نفسه، فقد تساءَلُ الأميرُ- عليه السلام - في تمهيد كلامه حولَ سعةِ الدارِ في الدنيا، وهو أحْوجُ إليها في الآخرة.

... ثانياً: بيَّن أن تركَ التنعمِ بخيرات الدنيا عن طريق الرهبنة والبدع مخالفٌ لما أمر اللهُ تعالى به من عدم تحريم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من ارزق. هذا إضافة إلى إطاعة إبليس الخبيث ويصبح الانسان عدواً لنفسه.

... رابعاً: فقط أئمةُ العدلِ وُولاةُ الأمن، مفروضٌ عليهم العيشُ كما يعيشُ فقراءُ الناس، ومُسْتَضْعفُوهُم، حتى لا يراهم الفقراءُ فيتألمون ويضعفُون... فيَفسِقون أو يَهْلِكون.

آثار الزهد المعنوية والروحية:

... أخي الكريم، سلوكُ الإنسان في الحياة، وطريقةُ تعاطيه مع الأمور، لا ريب أنها تؤثر على الجانب المعنوي من شخصيته فحتى التفاصيل اليومية من الجزئيات الحياتية والنشاطات الشخصية والاجتماعية، تُساهم مباشرة في صنع الكيانِ المعنوي للإنسان. فالذي يأكلُ كثيراً وبشراهة، لا تكون نفسيَّتُهُ كالذي يأكلُ مُتوازناً... والذي يُكثِرُ من المزاح والكلام ولغوِ القول، لا تكون شخصيَّتُهُ كالحكيم الذي يزن كلامَه، ويُفشي سلامَه، ويحبِس لَغْوَه، ويُحاسِبُ لسانَه. والذي يُحبُّ المالَ حباً جماً، ويَهِمُّ بالشهوات همَّاً هماً، ويتوثبُ على النزوات نَهَماً نهماً... ليس كالذي يضع الأمورَ في نصابها، ولا يقعُ في شِراكها، ويُعطي المسائلَ مهامَّها... فلا إسرافَ ولا تفريطَ ولا غدرَ ولا فجور...

... فالنفوس البشريةُ المعنويةُ هي الأساس وليس الهياكلُ الجسمانيةُ المادية، والنفوس كلما شعرت بكمالاتها الخُلُقيةِ والعقلية كلما أنِستْ عن دار الوَحْشة والغربة في الدنيا، واشتاقت إلى عالمِها العُلْوي، كما يذكر الفلاسفة....

... فنحنُ أبداً، في طريق السفر في منازل طريق الله تعالى للوصول إلى بهجة حضرته الشريفة بالاستقامة على أوامره ونواهيه... في طريق السفر، عن الدنيا والمنزل الجديب إلى الآخرة والمزلِ الخصيب...

... أما المتعلِّقون بأوهام الدنيا وزيفِ متاعها، فتهجُمُ عليهم الأهوالُ بغتةً، فيستَعْظمون مقارفةَ ما هم فيه الى ما لم يستعدوا له... وإلى هذا أشار الرسولُ حيث قال: "الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّة الكافر".

... يقول أمير المؤمنين - عليه السلام -:" إنما مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدنيا، كمثل قومٍ سَفَر نبا بهم منزلٌ جديب، فامُّوا منزلاً خصيباً وجَنَاباً مَريعاً، فاحتملوا وَعْثاءَ الطريقِ، وفِراق الصَّديق، وخشونَةَ السَّفرِ، وجُشُوبَةَ المَطْعِمِ، لِيأتُوا سَعَةَ دارِهم، ومنزِلَ قرارِهم، فليس يجدون لشيء من ذلك الماَ، ولا يرَوْنَ نفقةً فيه مغْرَماً، ولا شيءَ أحبُّ إليهم مما قرَّبَهمُ من منزلهم، وأدناهم من محَلَّتِهِمْ".

... "ومَثَلُ مَنْ اغترَّ بها كَمثَل قومٍ كانوا بمنزلٍ خصيب، فنبا بهم إلى منزلٍ جديب، فليس شيءٌ أكْرَهَ إليهم ولا افْظَعَ عنده من مُفارَقَةِ ما كانوا فيه، إلى ما يهجُمُون عليه، ويصيرون إليه..."

... أخي الكريم، ومن جملة الآثار المعنوية للسلوك المتَّزنِ مع الدنيا بعدم الحرص عليها، واعتبارها نهاية المطاف... أنك ترى الآخرةَ وإن كنتَ في الدنيا، وكأنَّ الغِطاءَ قد كُشف لك... ومن علامات ذلك عدمُ الإنشغال بالبيع والتجارة وابتاعِ محارمِ الله عن الفوزِ بالآخرة...

... ويقول الأمير- عليه السلام -:"... وإنَّ للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلَمْ تشغلهم تجارةٌ ولا بيعٌ عنه، يعطعون به أيام الحياةِ، ويهتِفون بالزواجر عن محارم الله، ويتناهَوْن عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراءَ ذلك، فكأنَّما اطَّلعوا غُيوبَ أهْلِ البَرْزَخ في طول الإقامةِ فيه، وحقَّقَتِ القيامةُ عليهم عِدِاتها فكَشَفُوا غِطاءَ ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرَوْنَ ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون...."

... ويقول الأمير - عليه السلام - في كلامٍ بليغٍ جديرٍ بالتأمل: "من هَوَانِ الدُنْيا على الله أنه لا يُعْصى إلا فيها، ولا يُنالُ ما عِنْدَهُ إلا بتَرْكِها".

***

... فَمنَ يعصى الله في غير الدنيا؟ وما قيمتُها إذا كانت الآخرةُ ورضى اللهِ لا يكونان إلا بنبذها؟! فهل سمِعْتَ بحقٍ يُخالفُ ذلك؟..

... قال أميرُ البيان وقُدوةُ الأنام عليه الصلاة والسلام:"... وكلُّ شيء من الدنيا سَماعُهُ أعظَمُ من عيانِهِ، وكلُّ شيء من الآخرة عِيانُهُ أعظمُ من سَماعِهِ، فَلْيكْفِكُمْ من العيان السَّمَاعُ، ومن الغَيْبِ الخَبَرُ، وأعلموا أنَّ ما نَقَص من الدنيا وزاد في الآخرة خيرٌ ممَّا نقص من الآخرة وزاد في الدنيا، فكمْ من منقوصٍ رابحٍ ومَزيدٍ خاسرٍ! إنَّ الذي أُمِرْتُمْ به أوْسَعُ من الذي نُهيتُم عنه، وما أحِلَّ لكم أكثرُ مما حُرِّمَ عليكم، فذروا ما قلَّ لِما كَثُرَ، وما ضاق لِما اتَّسَعَ، فقد تُكُفِّل لُكمْ بالرِّزق وأُمرتُم بالعمل... فبادِروا العَمَلَ، وخافوا بَغْتَةَ الأجَلِ، فإنه لا يُرجى من رَجْعَةِ العُمر، ما يُرجى من رجعةِ الرِّزق، ما فاتَ اليومَ من الرِّزق رُجِيَ غداً زيادَتُهُ، وما فات أمْسِ من العُمُرِ، يُرْجَ اليومَ رَجْعَتُهُ، الرجاء مع الجائي، واليأسُ مع الماضي: ((اتقوا الله حقَّ تُقاتِهِ، ولا تموتُنَّ إلا وأنت مُسْلمون)).

فضيلةُ الأملِ القصير:

... إن الأملَ مهما كان عظيماً، فهو إلى انقضاء... وكأنّي به حقيرٌ ....وإنَّ الزمن ومهما كان مديداً فهو إلى فناء... فكأني به قليل....قد يطولُ الليل... وكنّ طولَه إلى نهاية... وما من شيء له بداية إلا وله ختام ونهاية... هذا ما نَشْعُرُ به ونتلمَّسُهُ في كل يوم.

... أو ليس الصباحُ يلوه مساء... وبَدْرُ القمرِ يخفِت قليلاً قليلاً ... وَوَهْجُ الشمس يخبو رُوَيْداً رُويْدا ً... ومَوْسِمُ العِنَبِ ينتهي... وثَلْجُ الشتاء يذُوب... وماءُ النهرِ يغور... والقلمُ في يدي يَنْقُصُ قليلاً قليلاً ، إلى أن يفرُغ... والكلام الذي تقرأه الآن سينتهي بعد قائق...وكل شيء مِنْ حولنا يُحدِّثُنا بذلك...وينطُقَ به.

... أخي وحبيبي، إنَّك تُسْرِعُ لِتَلحق بقطار الحياة والشباب أفلم تُفكِرْ يوماً أنك تقف في مكانِ مَنْ وَقَفَ قَبْلكَ، فأنت راكبٌ وعلى حال مطيةَ الليل والنهار، فيُسارُ بك وإن كنتَ وقفاً، وتقطعُ المسافة وإنْ نِمْتَ عنها... كما يقول الأميرُ - عليه السلام - في وصيته الخالدة لابنه الحسن سلامُ الله عليه حيث يقول:" رُوَيْدا َيُسْفِرُ الظلامُ، كأنْ قد وَرَدَتَ الأظْعَانُ، يوشِكُ مَنْ أسْرَعَ أنْ يَلْحَقَ! واعلم يا بُنَّي أنَّ من كانت مطَّيتُهُ الليلَ والنهارَ، فإنه يُسارُ به وإنْ كان واقفاً، ويَقْطَعُ المسافَةَ وإنْ كان مقيماً وادِعاً".

... ولا ننسى أننا جميعاً أبناؤه - عليه السلام -، والرسالةَ مُوجَّهَةٌ لنا جميعاً.

... ويقول أهلُ الزهدِ الحقيقي وهم يَدْعونَ الى قِصَرِ الأمل: إنَّ نِسْيانَ الموتِ يُقسّي القلبَ، ويورِثُ الغفلةَ عن ذكر الله تعالى ... أوَلَيْسَ ربُّنا عزَّ وجل هو القائلَ ((فطال عليهِمُ الأمدُ فقسَتْ قلوبُهم، وكثيرٌ منهم فاسقون))، وهناك مسألةٌ غايةٌ في الأهمية، وهي: أنَّ الانصرافَ عن الدنيا، إلى الله تعالى والآخرةِ والثوابِ، بحاجةٍ الى أسبابٍ وأساليب، كشِدَّةِ الحنين والوَلَهِ إلى المِلكِ القدوسِ تبارك وتعالى، والدعاء المستمر والتبتل والتضرع وطولِ السجود... والإخلاصِ في كل شئ، والشعورِ بالعجز عن إدراكِ شكر نعمِ الله الجليلة والكثيرة، فالقيام بذلك، أو الشعورُ بوجوب القيام به والسعي إليه، هو الخطوةُ الأولى لإدراك الغاية المرجُوَّة.

... يقول عليٌ - عليه السلام -:"... فأزمِعُوا عبادَ الله للرحيل عن هذه الدارِ المَقْدورِ على أهلها الزوالُ، ولا يَغْلِبَنَّكُم فيها الأملُ، ولا يَطُولَنَّ عليكُمْ فيها الأمدُ، فوالله لم حنَنْتُم حنين الوُلَّهِ العِجال ودعوتُمْ بهَديلِ الحَمام، وجأرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبتِّلي الرُّهبان، وخَرَجتُم إلى الله من الاموالِ والأولاد، التماسَ القُرْبَةِ في ارتفاع درجةٍ عِنْدَه، او غُفْرانِ سيِّئةٍ احصَتْها كُتُبُه، وحَفِظَتْها رُسُلُه، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخافُ عليكم من عقابه...".

ويُظْهرُ الأميرُ- عليه السلام - في نص آخر، أن علاماتِ الأجل حصلت، وحريٌ بنا أن نُقصِّر الأمَلَ ونَسْتَعدَّ للرحيل، ... فيومُ الفصل كان ميقاتاً، ويومُ الحساب بات حاضراً ً وذلك يقول - عليه السلام -:

"... فالله عبادَ اللهِ! فإنَّ الدنيا ماضيةٌ بكم على سَنَنٍ، وأنتم والساعةُ في قَرَنٍ، وكأنَّها قد جاءت بأشراطها، وأزفَتْ بأفراطِها، ووقَفَتْ بكم على صراطها، وكأنها قد أشرَفَتْ بزلازِلها، وأفاضَتْ بكلاكلها، وانْصرمت الدنيا بأهلها، وأخْرَجَتْهُم من حِصْنِها، فكانت كيومٍ مضى، أو شهرٍ انقضى، وصار جديدُها رَثَّاً، وسمينُها غثّاً، في مَوْقِفٍ ضَنْكِ المَقام، وأمورٍ مُشْتَبِهَةٍ عظام، ونارٍ شديدٍ كَلَبُها، عالٍ لَجَبُها، ساطع لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظٍ زفيرُها، مُتأجِّجٍ سَعِيرُها، بعيدٍ خُمُودُها، ذاكٍ وُقُودُها، مَخُوفٍ وَعِيدُهَا، عَمٍ قرارُها، مُظْلِمَةٍ اقطارُها، حامِيَةٍ قُدُورُها فظيعَةٍ أمورُها، ((وسِيقَ الذينَ اتَّقَوْا ربَّهم إلى الجنةِ زُمَراً))، "قَدْ أُمِنَ العذابُ، وانقطع العِتاب، وزُحزِحوا عن النار، وأطْمأنَتْ بهم الدار، وَرَضُوا المثوى والقرار، الذين كانت أعمالُهُم في الدنيا زاكيةً، وأَعْيُنُهم باكيَةً، وكان لَيْلُهُم في دنياهُم نهاراً، تَخَشُّعاً واستِغْفَاراً، وكان نهارُهُم ليلاً، تَوَحُّشاً وانقطاعاً، فجعل الله لَهَمُ الجنَّة مآباً، والجزاءَ ثواباً، وكانوا أحقَّ بها وأهْلَها، في مُلْكٍ دائمٍ، ونعيمٍ قائم...".

قِصَرُ الأمال:

حتى يكونَ المرءُ زاهداً حقاً، هناك أُسسٌ يُعرفُ بها، وتكونُ في حياته شعاراً ودثاراً، ومن هذا الأسس: قِصَرُ الأمل، والشكْرُ عند النعم، والورع عن المحارم.

فالزاهد قصيرُ الأمل، لا يَعِدُ نفسَه بطول المكوث في هذا الدنيا، لأنه يعلم أن لذاتِها فانية، ونعيمها لا يدوم، ومُلْكَها لا يبقى... فضلا ً عن عظيم شوقه للقاء الله تعالى، ونعيم الجنة الباقي الذي لا يزول. فهو الذي اْختار وبإرادته اختار الباقية على الفانية، والخالدةَ على ما يزول، والآخرةَ على الدنيا فإيمانُهُ بالآخرة قوي، ويقينُهُ راسخ، وأفنى جُلَّ حياتِه، في مكافحة شهواته، إذا ينبغي للزاهد الصادق، أن يبقى مُعْرِضاً عن الدنيا غيرَ مُتعلِّق بها، بمعنى ان لا تُنْسِيَهُ الآخرةَ، وبَغْتَةَ السَّفر.

والزاهدُ يعلمُ وفوقَ علمِ الآخرين ويقينهم، يعلمُ أنَّ ما مضى لا يعود وما لم يأتِ، لا تُعْلَم حقيقتهُ، ومقدارُ فائِدتِهِ، وزمانُ مكوثِه، ومُدَّةُ دوامِه. فضلاً عن جهلنا في أننا هل نُدْرِكُهُ أم لا؟.

***

... وحتى يُقوِّيَ الزاهد قِصرَ الأملِ في نفسه، يُذكِّرُها بأن سرورَ الدنيا يعترضُهُ حُزْنُها، وقوةُ الرجال وعُنْفُوانُ الشبابِ مهما طال وعَنُفَ فهو إلى ضعفٍ وضياع، فلا يَغْتَرُّ بالكثير منها، وبالكثرة التي تُعْجِبُ الآخرين المحجوبين عن الحق والحقيقة.. لأن ذلك كلَّه لا يدوم، كما لم يَدُمْ للسابقين قَبْلَنا.

... والزاهد، دائمُ التفكيرِ والاعتبار، وقويُ البصيرةِ والاسْتِبْصار، يعلم أن الكائن اليوم، لن يكون غداً، وأن النعيم في الحال، حسابٌ في المآل، والحِملُ الذي نحرصُ عليه، يبقى لغيرنا، فمُتْعتُهُ يسيرةٌ، وفاجِعَتُهُ كبيرة... وحقيقةُ الآخرةِ التي هي اليومَ سُماع، غداً عِيان، وتصور اليوُّم ملموسٌ غداً.

... ثم إنّ الزاهد يرى، وبعين الله يرى، أن الأيام تنقضي، وهي معدودةٌ، والمعدودُ المنقضي، لا مفرَّ من إدراكه وقربِ أهدافِه، وسرعةِ نزوله... ومهما كان الزمانُ طويلا ً ومديداً، فالزاهدُ قصيرُ الأمل، يعلمُ أن اليوم يَتْبَعُهُ يومٌ والأيامُ أسابيع، والأسابيع

أشهر، والأشهر سنوات، والسنوات وإن كثرت فهي قليلة... تنقصُ مع كل صباحٍ واشراقةِ شمسٍ وصِياحِ ديك... الليل يَعْقُبُهُ النهار، والنهار يندَسُّ في الليل، وهكذا مَلْحمةُ التاريخ لا تتوقفُ، ولا تنتظر احداً، ولا تستثني فرداً، ليلٌ يُعَسعِس وصُبحٌ يتنفَّسُ. وكلُّ معدودٍ له نهاية، والمُنْتَظَرُ وشيكُ الحضور، والآتي قريبٌ بات وراءَ الباب، أو يكاد.

... يقول الأمير - عليه السلام - في نهج البلاغة:"أيها الناس، انظروا الى الدنيا نَظَرَ الزاهدين فيها، الصادفين عنها، فإنها واللهِ عمَّا قليلٍ، تُزيلُ الثاويَ الساكنَ، وتَضْجَعُ المُتْرَفَ الآهِن، لا يَرْجعُ ما تولَّى منها فأدبَرَ، ولا يُدْرَي ما هو آتٍ منها فيُنْتظَرَ، سُرُوْرُها مَشوبٌ بالحزن، وجَلَدُ الرجال فيها الى الضَّعْفِ والوَهْنِ، فلا يَغرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ ما يُعْجِبُكُمْ فيها، لقلة ما يَصْحَبُكُمْ منها".

"رحم اللهُ امرَاً تَفكَّرَ فاعْتَبَرَ، واعْتَبَرَ فأبْصَرَ، فكأنَّ ما هو كائنٌ من الدنيا عن قليلٍ لم يكن، وكأنَّ ما هو كائنٌ من الآخرة عما قليلٍ لم يَزَلَ، وكلُّ معدودٍ منقضٍ، وكُلُّ مُتَوجّهٍ آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ دان".

فأين المُعِدُّونَ وأين المُسْتعدونَ للرحيل... وأين المتأهِّبون وأين المُزْمِعونَ للسفر... فالقَدَرُ السفر، ومخدوعٌ مَنْ ناجاها وواعدها بطول الأمل... والزاهدُ حقاً هو المُستعدُّ أبداً للمفارقة، والتاركُ للَّذاتِ لأنها تُنْسي الآخرة.

... قال الأمير - عليه السلام -:" واتَّقوا لله عبادَ اللهِ، وبادِروا آجالكُم بأعمالِكُمْ، وابتاعوا ما يبقى لكُمْ بما يزولُ عنكُمْ، وتَرَحَّلُوا فَقَدَ جُدَّ بِكم، واستعِدُّوا للموتِ فَقَدَ أظلَّكم، وكونوا قوماً صيْحَ بهِمْ فانْتَبَهَوا، وعَلِموا أن الدُنيا لَيَسَتْ لهم بدارٍ فاستَبْدَلوا، فإنَّ الله سُبْحانَهُ لَمَ يَخْلُقْكُمْ عبثاً، ولم يتركُكُمْ سُدى، وما بينَ أحَدِكُمْ وبينَ الجنةِ أو النارِ إلا الموتُ أنْ يَنْزِل به، وأنَّ غايةً تُنْقِصُهَا اللَّحظَةُ وتَهْدِمُها الساعةُ لجديرةٌ بِقصَرِ المُدَّة... فَتَزَوَّدوا في الدنيا، من الدنيا، ما تُحرِزونَ به أنفسكُمْ غداً، فاتَّقى عبدٌ ربَّه، نَصَحَ نَفَسَهُ، وقدَّمَ تَوْبَتَهَ وغَلَبَ شهوته، فإنَّ أَجَلَهُ مَسْتُوْر عنه... نسأل لله سبحانَه أن يَجْعَلَنا وإيَّاكُمْ مِمَّنْ لا تُقْصَّرُ به عن طاعة ربِّهِ غايَةٌ، ولا تَحِلُّ به بَعْدَ الموتِ ندامةٌ ولا كآبةٌ".

علامات الزاهدين:

... الزهدُ في الدنيا، مقامٌ شريفٌ من مقامات السالكين... وحقيقتُه الإنصرافُ عن شيء إلى ما هو خيرٌ منه ولا بد أن يكون الانصراف والرغبةُ عن الشيء المحبَّبِ، كالدراهم والدنانير، حتى تُسمَّى الرغبةُ عن الشيء زهداً، إلى ما هو أفضلُ منه حباً ورغبةً... وأما إذا كان لا قيمة له كالتراب والحشرات، فلا يُسمى هذا زاهداً.

ورُبَّ سائلٍ: ما علاماتُ الزهد؟! فإننا نرى قوماً، تركوا المالَ، وأظهروا الخشونة، واكتفَوا بالقَدْر اليسير من الطعام، ولازموا بيوتَهم... حبَّاً بالمدح، ورغبةً في معرفة الناس عنهم أنهم زاهدون... وهم في واقع الأمر منافقون. فيقال له: إنَّ علامات الزهد ثلاث:

فالأولى: أن لا يفرح بموجود ولا يحزَنَ على مفقود، قال تعالى: { لكِيْلا تَأْسَوا على ما فاتَكُم ولا تفرَحُوا بما آتاكُم } ، وهذا هو الزهد في المال.

والثانية: أن يستوي عنده ذامُّه ومادِحهُ، وهذا هو الزهد في الجاه.

الثالثة: أن يأنس بالله تعالى، وتغلب عليه الطاعةُ، فالقلبُ إمَّا أن يُحبَّ الدنيا، وإمَّا أن يُحبَّ الآخرة، ولا يُمكنُ اجتماعُهُما أبداً، كما لا يجتمع الهواء والماءُ في إناء واحد.

يقول أميرُ المؤمنين وسيدُ المتقين، عليه صلواتُ المصلين: "الزُّهْدُ كُلُّه بين كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه، لكَيْلا تأْسَوْا على ما فاتكُم، ولا تَفْرحوا بما آتاكم، ومَنْ ليم يأْسَ على الماضي، وليم يَفْرحْ بالآتي، فَقَدْ أخذ الزُهْدَ بطرفَيْه".

... وفي رسالة إلى عبد الله بن العباس، رحمة الله تعالى، وكان عبدُ الله يقول: ما انتفعتُ بعد كلام رسول الله - عليه السلام - :" فإن المرءَ يسُرُّهُ دَرْكُ ما لمْ يكُنْ ليَفوتَهُ، ويَسُووُهُ فوتُ ما لمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيكُنْ سُرُورُكَ بما نِلْتَ مِن آخرتِك، وَلْيَكُنْ أسَفُكَ على

ما فاتك منها، وما نِلْتَ من دنياك فلا تُكْثِر به فرحاً، وما فاتَك منها فلا تَأْسَ عليه جَزَعاً، وَلْيَكُنْ همُّك فيما بعد الموت".

... ويُبيّنُ الأميرُ- عليه السلام -، وتأسيساً على ما تقدم، كيف تحدُثُ عند الزاهد حالةٌ من التسليم والرضا، في كل شؤونه الحايتية والمعيشية والشخصية ما دام يُمهِّدُ ذلك، ويُعبِّدُ طريق الآخرة بسلام... فلا يلتفتُ إلى كيفية نومه، دام يُمهِّدُ، ويُعبِّد طريق الآخرة بسلام...فلا يلتفتُ إلى كيفية نومه ونعوعية فراشه، ولذيذ طعامه... فهو في الدنيا ليس فيها...فكأنه سافر إلى الآخرة قبل سفره، فالقلوبُ محزونةٌ شوقاً للقاء الله، وإنْ ضحكوا الأجسادُ هنا، والأرواحُ تُدغْدِغها خيالاتُ السفر إلى الملأ الأعلى.

... قال - عليه السلام - لنوف، وهو ينظر إلى النجوم ذاتَ ليلة، وقد خرج من فراشه:" طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة أولئك قومٌ اتَّخذوا الأرضَ بساطاً ، وتُرابَهَا فِراشاً، وماءَها طيباً، والقرآن شِعاراً والدعاءُ دثاراً، ثم قَرَضُوا الدُنيا قَرْضاً على مِنْهاجِ المسيح".

... وقال - عليه السلام -:" كانوا قوماً من أهل الدُنْيا، ولَيْسوا من أهلِها، فكانوا فيها، كَمَنْ ليس منها، عملوا فيها بما يُبْصِرون، وبادروا فيها ما يَحْذَرون، تَقَلَّبُ أبدانُهُم بين ظهرانَيْ أهل الآخرة، ويَرَوْنَ أهْلَ الدنيا يُعظِّمُونَ موتَ أجسادهم، وهم أشَدُّ إعظاماً لِمَوْتِ قلوب أحيائهم".

***

... وقال سلامُ الله عليه:" إنَّ الزاهدين في الدنيا تبكي قُلُبُهُمْ وإنْ ضحِكوا ويَشتدُّ حُزْنُهُم وإنْ فَرِحُوا، ويكثُرُ مقتُهُمْ وإن اغتُبِطُوا بما رُزقوا".

... فهذه هي بعضُ خصائص الزاهدين بالمال، فهم في مَنْأى عمَّا فاتهم وعما أتاهم... والزاهدين بالجاه، لا يتغيَّرون بمدحِ مادحٍ أو دمِّ ماقتٍ، فمقاييسُهُم واحدةٌ لا تتبدل عندهم، وإنْ تبدلتْ نظرةُ الناس إليهم،....وهم الذين يعيشون الآخرة قبلَ أوانِها، سيرتُهُم سيرةُ الأنبياء، لا يرتاحون إلا بعد سفرهم الأخيرة...محزونون وإنْ ... ضحك الناس، قُوَّةُ أعينهم فيما لا يزول، وزهادَتُهُمْ فيما لا يبقى.

فضيلة القناعة :

نحمده على ما أخذ وأعطى، وعلى ما أبلى وابتلى، الباطن لكل خفية والحاضر لكل سريرة، العالم بما تكن الصدور، وما تخون العيون، وتشهد أن لا إله غيره وأن محمداً نجيبه وبعيثه، شهادة يوافق فيه السر الإعلان، والقلب واللسان.

من أهم الوسائل لتحصيل سعادة الأبد، وراحة البال مع طول الأمد، القناعة بما وهب الله تعالى، والاكتفاء بما رزق، والرضى بما كتب.

فالقناعة، ملكة أخلاقية هامة، توجب اكتفاء المرء، بقدر حاجته وضرورته من المال والمتاع، بلا سعي لإضاعة الوقت في تحصيل الزائد وما لا يحتاجه، ولا يدوم له، ولا يقاوم معه...

ومن ترك القناعة، يا أخي، اضطر إلى ركوب المساوئ، والمسالك المهالك ... ومن تلبس بالقناعة، والتزمها، عف بها، وعفته عن كثير التحصيل، فهو هادئ البال، مطمئن الحال، رابح المنال، من ضرورة مطعمه وملبسه، ومصرفه ومسكنه، إلى يومه أو شهره... فرغ باله، وجمع همه، وجانب عمه، وأقام أمره، فاشتغل بأمر الدين وسلوك الآخرة، والعمل لما بعد الموت، فتأمل وتفكر، وأعد واستعد، فهو على بينة من أمره، ينظر إلى آخرته، وقيام ساعته، التي يسعى إليها، ولا بد من لقائها.

ولعنا لا نتجنب الواقع لو قلنا: إن من أهم العلاجات النفسية، في هذا الزمن، القناعة التي تجلل صاحبها سكينة وطمأنينة، فيشعر وكأنه يحلق فوق شؤون الدنيا، وينطلق إلى الآخرة، وإذا مرَّ بالبلاءً مر كريماً.

فسلام على أهل الله، في بلاد الله ... على أهل السماء، في سماء الأرض، سلام عليهم في سموهم، في عظيم شأنهم، في قناعتهم ... طوبى لهم في سكون أطرافهم، وهدوّ نفوسهم، وراحة قلوبهم...

مساكين نحن يا أخي، فأين نحن منهم، وأين هم منّا، لا همّ لهم في مالٍ ولا ولد، ووالد وما ولد، وهم وكبد ... وحياتنا همّ، ولا أدنى من ذلك : في طعام الفطور والمساء، وفي لباس الليل عن النهار، وفي مصارعة الاعوان والأقران، وغيرة الأهل والجيران، وفي ما قيل ومن قال ... وفيما لهم وليس لنا، وفيما ملكوا ولم نملك ... فآه آه، من سكرة، لا تزول إلا بخروج زفرة، ليُتَّقى بعدها سوء العذاب.

يقول عليّ (عليه السلام) في مدح القناعة وعلاج الحرص، في كلام بليغ معبر: "فلا يغرنّك سواد الناس من نفسك، وقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال، وحذر الإقلال، وأمن العواقب.. كيف نزل به الموت، فأزعجه عن وطنه وأخذه في مأمنه، أما رأيتم الذين يأملون بعيداً، ويبنون مشيداً، ويجمعون كثيراً. كيف أصبحت بيوتهم قبوراً، وما جمعوا بوراً، وصارت أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين، لا في حسنة يزيدون، ولا من سيئة يستعتبون!".

وفي موعظة أخرى له(عليه السلام) قال : "... ومن العناء أن المرء يجمع ما لا يأكل، ويبني ما لا يسكن، ثم يخرج إلى الله تعالى، لا مالاً حمل، ولا بناء نقل! ومن عبرها أن المرء يشرف على أمله فيقتطعه حضور أجله، فلا أمل يدرك، ولا مؤمل يترك، فسبحان الله ما أعز سرورها! وأظمأ ريّها... فسبحان الله، ما أقرب الحي من الميت، للحاقه به، وأبعد الميت من الحي، لانقطاعه عنه! ... واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة، خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا ... إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم، فذروا ما قبل لما كثر، وما ضاق لما اتسع، قد تكفل، لكم بالرزق، وأمرتم بالعمل، فلا يكون المضمون لكم طلبه، أولى بكم من المفروض عليكم عمله... حتى كأن الذي ضمن لكم قد فرض عليكم...

"فبادروا العمل، وخافوا بغتة الأجل، فإنه لا يرجى من رجعة العمر ما يُرجى من رجعة الرزق، ما فات اليوم من الرزق رجي غدا زيادته، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته، الرجاء مع الجائي، واليأس مع الماضي، فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون".

انتهى كلامه(عليه السلام) ... ويا حبذا لو نتوقف عنده أكثر، ونتأمل فيه أوفر...

وماذا يمكن لنا أن نزيد، بعد الذي سمعناه، وما يمكن لنا أن نعلق بعد الذي تلوناه... فالأجدر والأنسب أن نختم ملخصاً عما تقدم، من كلامه المبارك

الشريف (عليه السلام) حيث قال باختصار: "... ومن لهج قلبه بحب الدنيا التاط قلبه منها بثلاث: همٍّ لا يُغِبه، وحرص لا يتركه، وأمل لا يدركه".

وقال(عليه السلام) : "لكل امرئٍ في ماله شريكان: الوارث والحوادث".

نكتفي بهذا، وننزوي خجلاً وأدباً بعد كلامه(عليه السلام) ... لننتقل إلى علاج الحرص على الدنيا.

ذم الحرص على الدنيا :

... أيها الأخ العزيز: كثير من الناس يحرص على جمع المال، مما يحتاجه وما لا يحتاجه ... ونحن منهم ... حيث العمل الدؤوب المستمر الذي لا يتوقف عند حدود، ولا يقنع برزق معدود، فترانا نجمع ما يفيد، وما ينفع اليوم، وما قد ينفع غداً... حرصاً على المال، وضناً بالقناعة من الحلال.

... وهذه درجة عالية من درجات الحرص على التعلق مما زال عن غيرنا، ولا يلبث أن يزول عنا... وهذه درجة عالية من درجات حب الدنيا ...

... أيها العزيز : من قال إننا نحتاج لكل هذا؟! ومن أنبأك أنك ستمهل حتى تتمتع بهذه الأكوام من المعادن والأخشاب والأوهام، التي تتراكم ي زوايا منزلك، حتى تكاد تختنق مع بعضها، فتضيق منها الجدران، وكأنها ستلفظها إلى الجيران.

... أنظر يا أخي وحبيبي من حولك، إلى أثاث منزلك، وما علقت على جدرانك، وما نصبت على سقفك، وما اختزنت في مطبخك، وما جمعت في خزانتك ... هل فعلاً أنك تحتاج إلى هذا كله؟! أم الحقيقة أنك مستغن عن جله؟!

أنظر من حولك في غرفتك التي تجلس فيها الآن، وأنت تقرأ هذا الكلام، وفكر: كم من هذه الأمور التي تقع تحت نظرك، لم تستغلها منذ زمن طويل؟ وهذا خير دليل، على أنها لم توضع في خير سبيل، فلم الحرص عليها؟! هذا الحرص المؤدي إلى الطمع، والبعد عن الشبع، والمورث للهلع والوجع.

يقول مولانا علي(عليه السلام) في نهجه عن الإنسان الحريص : "فإن سنح له الرجاء، أذله الطمع، وإن هاج به الطمع، أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف".

ويقول(عليه السلام) لحبيبه كميل بن زياد، وقد أخرجه إلى الجبانة، فلما أدركها،

تنفس(عليه السلام) الصعداء طويلاً، ثم قال فيما قال : "يا كميل، هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر ... " إلى آخر كلامه(عليه السلام).

وفي إشارة إلى بطش الجبابرة وحرصهم، وظلم الناس لبعضهم، يقول(عليه السلام) : "... ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى، يجمعها سوء الظن بالله... إنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر".

وفي ذلك إشارة إلى حرصهم على جمع المال، ليدخروه لزمن ما بعد الولاية، إذا زويت عنهم ... لكن هيهات، لقلة انتفاعهم بالعبر والسير والغير... عبر الأمم، وسير الملوك، وغير الزمان ... فلا يبقون لشيء ولا يبقى شيء لهم.

فالطمع إذا أوغل في قلب ابن آدم، ليس له حدود يقف عندها ... وإذا وصل إلى درجة الحرص، طغى وبغى ... ومن أصحاب القرون، ممن هو كقارون في عصرنا هذا وفي العصور الغابرة، من منهم اقتنع واكتفى ورضى بما رزق؟!.

فسلام الله على سيد البشر(ص) الذي قال: "لو كان لابن آدم دارين من ذهب، لابتغى وراءهما ثالثا".

وذكر فيما نزل به الوحي من السماء: "لو أن لابن آدم دارين يسيلان ذهباً وفضة، لابتغى لهما ثالثاً".

وفي إشارة إلى الحرص وعدم الاكتفاء، بما بلغنا من أمر الدنيا، يقول علي(عليه السلام) في رسالة لمعاوية، الهائم في الدنيا والموغل في الحرص، يقول له : "فإن الدنيا مشغلة عن غيرها، ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً عليها، ولهجاً بها، ولن يستغني صاحبها بما نال فيها عما لم يبلغه منها، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، ونقض ما أبرم ولو اعتبرت بما مضى حفظت ما بقي، والسلام".

فيا أخي : هذا هو الحرص الذي يشيع، وهذا هو الحريص الذي لا يشيع، هم دائم، وغم قائم، لا يحجب موتاً، ولا يخفف حساباً ... ولم يبق إلا القناعة، نختزنها ليوم الساعة ... فعليك بها لا تربت يداك.

علاج الحرص على الدنيا :

... الحمد لله الواصل الحمد بالنعم، والنعم بالشكر، نحمده على آلائه، كما نحمده على بلائه، ونستعينه على هذه النفوس البطاء عما أمرت به، السراع إلى ما نهيت عنه، ونستغفره مما أحاط به علمه، وأحصاه كتابه : علم غير قاصر، وكتاب غير مغادر

ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب، ووقف على الموعود ... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً(ص) عبده ورسوله، شهادتين تصعدان القول، وترفعان العمل، لا يخف ميزان توضعان فيه، ولا تثقل ميزان ترفعان عنه.

أخي، أيها العزيز، سمعنا عن كثير من الناس، أنهم جمعوا أموالاً كثيرة، حرصوا عليها حرصاً وفيراً، ونزلت في قلوبهم تنزيلاً، أُشرِبوا حبها، وطاش لبهم من غرامها، وسكروا على عشقها... ثم رحلوا عنها تاركين، وحوسبوا عليها نادمين. فما أدركوا ما أملوا، وما أنفقوا ما جمعوا ... تعبوا في جمع الأموال حرصاً، وتنعم غيرهم بغياً ...

... فالورثة، إما صالحون ينفقون المال، وليس لمن وزنهم ثواب، وإما طالحون، وليس لمن ورثهم إلى العقاب.

... والحريص يا أخي ينعم الغير دون نيل ثواب، أو يسعد الآخرين، وفوق له عقاب... فلا تكن حريصاً مهووساً، ولا تجمع فوق حاجتك، حتى لا تطول وقفتك، ويعسر حسابك.

يقول مولانا الأمير(عليه السلام) أمير البيان والعارف بأسرار التنزيل والقرآن لابنه الحسن عليهما صلوات المحسن المنان: "لا تُخلفن وراءك شيئاً من الدنيا، فإنك تخلفه لأحد رجلين : إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت له، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فشقي بما جمعت له، فكنت عوناً له على معصيته، وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك".

ويقول(عليه السلام) في حكمه: "يا ابن آدم، ما كسبت فوق قوتك، فأنت فيه خازن لغيرك".

فيا أخي، عالج حرصك، بما أمر ربك، خذ حاجتك، وأنفق صدقتك، في حياتك، أسعد الفقير قبل مماتك، وأنعش محتاجاً، تنعش نفسك، وتقدم خيرك.

يقول الأمير(عليه السلام) في رسالته للحارث الهمداني: "وأعلم أن أفضل المؤمنين، أفضلهم تقدمة من نفسه وأهله وماله، فإنك ما تقدم من خير يبق لك ذخره، وما تؤخره يكن لغيرك خيره".

فكم حسرتك كبيرة يا أخي، لو أنفق مالك في غير ما ترجو، وكم يحسن لك أن تنفقه فيما ترجوه، حتى تكون النية والفعل لك، لا لغيرك.

ورد في حكم الأمير، عليه صلوات الخبير البصير، قوله (عليه السلام) : "إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالاً في غير طاعة الله، فورثه رجل فأنفقه في طاعة الله سبحان، فدخل به الجنة، ودخل الأول به النار".

ومن حكم علي(عليه السلام) : "إن أخسر الناس صفقة، وأخيبهم سعياً، رجل أخلق بدنه في طلب ماله، ولم تساعده المقادير على إرادته، فخرج من الدنيا بحسرته، وقدم على الآخرة بنعته".

فيا نفس الحريصة، المحبة للمال...

ويا أيها الناس الحريصون على ما لا ينفقون ولا يحتاجون ... على ماذا تتكلون؟!.

أعلن الآمال الكاذبة، أم الأبنية الخالية، أم الملك الزائل، أم العزيز الراحل، أم القريب المسافر، أم الجار المنافر، أم الحبيب الحاسر، أم الشريك الخاسر... أم الزوج المقصر أم الصديق القاصر؟.

أعلى هذا ينكل العاقلون، أما الأغبياء الغافلون؟.

طوبى لمن سمع فوعى ... إسمع مولاك الأمير(عليه السلام) يقول: "معاشر الناس، اتقوا الله، فكم من مؤمل ما لا يبلغه، وبان ما لا يسكنه، وجامع ما سوف يتركه، ولعله من باطل جمعه، ومن حق منعه، أصابه حراماً، واحتمل به آثاماً، فباء بوزره وقدم على ربه، آسفاً لاحفاً، قد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين".

وفي كتابه (عليه السلام) لشريح القاضي: "... ومن جمع المال على المال فأكثر، ومن بنى وشيد، وزخرف ونجد، وادخر واعتقد، ونظر بزعمه للولد، أشخاصهم جميعاً إلى موقف العرض والحساب" وخسر هنالك المبطلون".

* * *

الصداقة والأصدقاء

أخي الحبيب، لا أستطيع إلا أن أخاطبك بصيغة المودة والمحبة، واستأنس عندما أذكرك، فأنت الحبيب وأنت الصديق وأنت القريب... فالإنسان لا يستطيع أن يعيش وحيداً في هذه الدنيا ولعله سمي إنساناً لأنه يأنس أو يؤنس...

فالواحد منا يريد رفيقاً ومساعداً ومؤنساً، ولولا ذلك ما قامت الدنيا، وما تآلف الناس، وما تعانوا.

وفي نهج البلاغة المبارك نصوص تحدد معالم الصداقة، وحدودها، وأبعادها وآثارها على النفس الإنسانية، وعلى روح المجتمع وحيويته. يقول الأمير(عليه السلام) في نهجه المبارك: "والغريب من لم يكن له حبيب".

ويقول سلام الله عليه قبل ذلك: "ورب بعيد أقرب من قريب، وقريب أبعد من بعيد".

فالحب الإنساني والأخوي ضروري في هذا الحياة الدنيا، وليس القرب قرب الجسد، وإنما قرب الأحاسيس والمشاعر والأهداف المشتركة والتعبد لله تعالى الحي القيوم يقول(عليه السلام) في حكمة له: "فقدُ الأحبة غربة".

فيا أيها الغريب في هذه الدنيا، الذي تزاد غربته إذا فقد أحباءه... يا أخي، أيها العزيز : أحسن الاختيار، ورافق الأخيار، وفتش عن الأبرار، وتجنب الفجار، الذين يردون بك إلى النار... فهل في ذلك موعظة للاعتبار؟! فيفوز الفائزون بمجاورة المختار وآله الأبرار في جنات وأنهار ورضوان العزيز الجبار.

وأعود فأقول لك، أحسن الاختيار يا أخي، أيها الحبيب، وقارن أهل الصلاح والفلاح لنفوز بنجاح... يقول مولاك وتاج رأسك أمير المؤمنين(عليه السلام) : "قارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبن عنهم... لا خير في معين مهين ولا في صديق ضنين".

أخي: احذر أن تُصادق أهل المنكر وأهل الفسق لأنك وإن لم تفعل فعلهم إلا أنك ستنسب إليهم، نتيجة مرافقتهم ومجاورتهم. وفي ذلك يقول أمير المؤمنين سلام الله تعالى عليه: "واحذر صحابة من يفيل رأسه، وينكر عمله، فإن الصاحب معتبر بصاحبه... وإياك ومصاحبة الفساق، فإن الشر بالشر ملحق، ووقر الله، وأحبب أحباءه".

ويقول سلام الله عليه في وصيته لابنه الحسن: "يا بني، إياك ومصادقة الأحمق، فإنه يزيد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصادقة البخيل، فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإياك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه، وإياك ومصادقة الكذاب، فإن كالسراب. يقرب عليك البعيد، ويبعد عليك القريب".

فهذه يا أخي بعض من النصائح التي يجب أن تراعيها في اختيار الأصدقاء... والحمد لله على نعمة الإسلام.

حقوق الأصدقاء:

تعيش في هذه الدنيا مع فئات مختلفة من الناس، وأصناف متعددة في المجتمع... تأخذ منهم وتعطي، تتعاونون أو تُقصرون... إلا أنك في قرارة نفسك تشعر بأن لك حقوقاً، كما عليك واجبات.

والحقوق التي عليك تختلف بحسب صاحب الحق من أبٍ أو أم أو جارٍ أو صديق أو رفيق طريق أو إنسان حبيب... وحدد الإسلام لكل واحد من هؤلاء حقاً وحصة. فما هي يا ترى حقوق الأصدقاء؟! وكيف تحافظ عليها؟!.

من حقوق الأصدقاء أن تحفظهم في سرهم وعلانيتهم، في حضرتهم وغيبتهم، في سرائهم وضرائهم... بل في حياتهم وموتهم.

والصديق قد لا يحتاج لك عند اكتفائه، بل عند مصيبته، وقد لا يحتاج لك عند حضوره بل عند غيبته... وإذا قطعك، فصله، وإذا صدك قاربه، وإذا حبس، أعطه، وإذا بعد عنك، أدن عنه والتمس له عذراً ومخرجاً عند هفواته، واحمله عند سقطاته... واعلم أن سبب صلتك به، هو الله تبارك وتعالى، وهو فوق كل سبب، وأعظم من كل نسب.

يقول أمير المؤمنين(عليه السلام) : "احمل نفسك من أخيك عند صرمه، على الصلة، وعند صدوده على البذل وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين، وعند جرمه على العذر، حتى كأنك له عبد، وكأنه ذو نعمة عليك، وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه، أو أن تفعله بغير أهله. لا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك، وامحض أخاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة، وتجرع الغيظ، فإني لم أر جرعة أحلى منها عافية، ولا ألد مغبة، ولن لمن عالظك، فإنه يوشك أن يلين لك... وإن أردت قطيعة أخيك، فاستبق له من نفسك بقية، يرجع إليها، إن بدا له ذلك يوماً ما ... ولا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه... ولا ترغبن فيمن زهد عنك، ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك وعلى صلته، ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان". انتهى كلامه الشافي، سلام الله تعالى عليه...

وفي بعض حكمه(عليه السلام) يقول : "لا يكون الصديق صديقاً، حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته، وغيبته، ووفاته".

ومن الأمور الخطرة التي قد تعرض على الأخوة والصداقة، فتفتك بها وغالباً ما تقضي عليها، الإشاعات والوشايات التي تسعى بين المؤمنين حتى تنال منهم، وكثير منها فيه المبالغة والبهتان والزيادات والإضافات التي تخرب العلاقات الأخوية، والصلات والثقة بين الأحباء.

وكم من مرة عرض عليك أمام أخيك، أو فُتن بينك وبينه، وكم تمنيت على الطرف الآخر، أن يتفهم الحقائق والوقائع...

أخي، فما دمت تعرف فلاناً بتدينه وخلقه، فلا تسمح بالإشاعات حوله ولا تسمع، وصد الآخرين عن ذلك، ردعاً لهم عن منكرهم هذا.

إسمع أيها الحبيب، لما يقوله الحبيب أمير المؤمنين(عليه السلام) في النهي عن سماع الغيبة، قال "أيها الناس، من عرف من أخيه وثيقة دين، وسداد طريق، فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال، أما أنه قد يرمي الرامي، وتُخطئ السهام، ويحيل الكلام، وباطل ذلك ببور، والله سميع وشهيد، إما إنه ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع".

وعندما سئل(عليه السلام) عن معنى هذا، جمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه، ثم قال: "الباطل أن تقول سمعت، والحق أن تقول رأيت". وفي حكمة له قال : "ومن أطاع الواشي ضيع الصديق".

* * *

العجب ومضاره

كثيراً ما يعظم المرء شأن نفسه، إما وهماً منه مدعياً شيئاً لا يملكه، وإما لصدق فيه من علمٍ وغيره، لينسب حدوثه إلى ذكائه وحذاقته، لا إلى خالقه وبارئه.

وهذه الحالة تسمى بالعجب، أي إعجاب الإنسان بنفسه وبنعمه الموهوبة إليه... وتشتد هذه الحالة إذا كان صاحبها متميزاً عن أقرانه وجيرانه، وأقاربه وأصحابه، بعلم أو جمال أو سلطة أو عقار واسع، أو تجارة رابحة، أو رأي صائب. وتشمخ هذه الحالة، المرضية، كلما وفق في عمل أو أفلح في مجال، أو أصاب في تحرك فتنتفخ نفسه وتتورم بازدياد عجبه ومرضه، ويخال ذلك نعمة، بينما الحقيقة أنه يزداد ضخامة لخبثه، ومرضاً في نفسه، ومسكناً ممهداً لشيطانه، لا يلبث أن يقع صريع عجبه، وقتيل وهمه...

وبهذا يا أخي يكون قد خالف الصواب، وطريقة عيش ذوي الألباب، ليخسر ما كان يخاله خيراً، ويحسبه إحساناً...

وإليك ما قاله الأمير(عليه السلام) في ضرر العجب وعواقبه ... في وصيته لابنه الحسن(عليه السلام) : "واعلم أن الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب".

وفي وصيته(عليه السلام) للأشتر، لما ولاه على مصر، قال : "وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان، في نفسه، ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين".

واعلم يا أخي، أن مرض العجب خطير جداً، وليست خطورته تكمن في أنه من الكبائر فحسب، بل لأنه يصيب المؤمنين، حتى العابدين والصديقين منهم ... وهذا ما حذرت منه الروايات عن الأئمة(عليه السلام)... فالصديق يهلك إذا أتكل على عمله، والعابد يخسر إذا اعتمد على فعله... وكلاهما لا يفوز إلا برحمة الله وفضله... ولعلك سمعت بقصة صاحب عيسى(عليه السلام) الذي مشى على الماء، فلما دخله العجب، كاد أن يغرق، وزالت كرامته التي اصطفاه الله تعالى بها...

والمؤمنون الصادقون هم الذين يشعرون بان كل نعمهم من الله تعالى، ولا يستكثرون أعمالهم وإحسانهم، مهما كانت كثيرة... ولا يرون عُلواً على غيرهم وإن وُجدت أسبابه.

يقول مولانا الأمير(عليه السلام) لمن سأله الموعظة: "لا تكن ممن ...يستعظم من معصية غيره، ما يستقل أكثر من نفسه، ويستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن، ولنفسه مراهن، اللهو مع الأغنياء، أحب إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره، يرشد غيره، ويقوي نفسه، فهو يطاع ويعصي، ويستوفي ولا يوفي، ويخشى الخلق في غير ربه، ولا يخشى ربه في خلقه".

ويقول(عليه السلام) في شأن الملائكة : "... ولم يتولهم الإعجاب، فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم ... لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم... ".

كل هذا التواضع من الملائكة، وهم عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون ... وهم أهل الأمانة على وحي الله تعالى ... والحملة إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه...

وفي وصف المتقين المتواضعين غير المعجبين، يقول(عليه السلام) : "... لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكي أحد منهم، خاف مما يقال له، فيقول : أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي مني بنفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون".

وقبل الختام، فإن المعجب بنفسه، يعلم أكثر من غيره ضرر آفته عليه، فعجبه يمنعه من طلب الزيادة، وينفر الآخرين منه، كما يقول علي(عليه السلام) في بعض حكمه: "ولا وحدة أوش من العجب ...".

وقال(عليه السلام) : " ... ومن رضي عن نفسه كثر الساخط عليه".

* * *

مصير المتكبرين

إن أكثر الناس فساداً هم المتكبرون على الله تعالى، الذين يُسول إليهم الشيطان أنفسهم وكأنهم آلهة يعبدون من دون الله عز وجل. خاصة إذا كانوا من أهل المال والجاه والحكم وقهر العباد والتسلط على البلاد، ومن القادرين على قطع الأرزاق والرقاب، الواهبين القوة واليأس.

هؤلاء جرأتهم أكثر من غيرهم، نتيجة سكرة التسلط والقهر عندهم، والتي هي أشد من سكرة الخمر والمخدر، فهذه تقهر صاحبها لساعات، وتلك تقهر صاحبها لسنوات، ... وغالباً ما تستمر معه حتى موته.

وتاريخ البشرية الطويل يضج ويعج من هول ممارسات هؤلاء، من ظلمهم وجبروتهم، إلى كيدهم وسجونهم، إلى الدماء التي سفكوها، والأنفس التي أزهقوها، والمهج، التي قهروها، والكرامات التي سلبوها.

ولكن ... إلى أين المفر؟! ... يقول أمير المؤمنين(عليه السلام) : "... وإن لكم في القرون السالفة لعبرة ! أين العمالقة وأبناء العمالقة! أين الفراعنة وأبناء الفراعنة، أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين، وأطفؤوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين! أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن!".

... ويقول(عليه السلام) :" ... فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته، ووقائعه ومثلاته، واتعظوا بمثاوي خدودهم، ومصارع جنوبهم، واستعينوا بالله من لواقح الكبر، كما تستعيذونه من طوارق الدهر...".

... أخي الكريم : لا تنس أن أول متكبر في التاريخ، كان إبليس اللعين، الذي أسس أساس الانحراف والغرور والعجب في نفوس البشر.. فكلما اقتربنا من هذه الصفات، اقتربنا من نهج الأبالسة ولكما ابتعدنا عنها، ابتعدنا عن هذا النهج.

... يقول الأمير(عليه السلام) في النهج المبارك : "... فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله سلة آلاف سنة، لا يُدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟ كلا، ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً، إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض الواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرمه على العالمين".

أخي الكريم، تذكر أن الله تعالى هو فقط أهل الكبرياء والعظمة والجبروت، وهذه الصفات لا تنبغي إلا له تبارك وتعالى، وأما نسيتها إلى غيره عز وجل، فهذه جرأة وتطفل وغرور، ووضع للأمور في غير محلها، كما قرر ذلك علماء الفلسفة وعلم الكلام...

قال الأمير(عليه السلام) في ذمه لإبليس لعنة الله، واستكباره وتركه السجود

لآدم(عليه السلام)، قال: " الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه وجعلهما حمى وحرماً على غيره، واصطفاهما لجلاله. وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده، ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين، ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه، وهو العالم بمضمرات القلوب، ومحجوبات الغيوب: ((إني خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس))، اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدو الله المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازعت الله رداء الجبرية، وأدرع لباس التعزز، وخلع متاع التذلل، إلا ترون كيف صغره الله بتكبره، ووضعه بترفعه، لجعله في الدنيا مدحوراً، وأعد له في الآخرة سعيراً ؟!".

أخي الرياض الكريم إن التقي الحق، هو الذي يتواضع لكل عباد الله تعالى، إما لأنهم أهل لذلك، لإيمانهم، وإما لأنه هو أهل لذلك، تجاه المستضعفين.. وإذا بعد عنهم فليس ذلك لتكبره، بل لزهد أو تأديباً لهم وتذكيراً ... قال أمير المؤمنين(عليه السلام)عن التقي : "... بُعدُه عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودُنوه دناه منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة".

علاج العجب :

أخي : العجب، هذا المرض الفتاك، أصاب الزعماء والرؤساء، والعباد والزهاد من قل، وكم أهلك منهم، وشتت إيمانهم. وأقام همهم.

فمن الناس من يعجب بكثرة عمله، ومنهم من يعجب بوفرة ماله، أو كثرة طاعاته، أو ورعه وتقواه وصبره ... فهل إلى علاج من سبيل؟!.

نعم فعلى المعجب بعلمه ورأيه وحكمته أن يرجع حصول هذه الفضائل النفسية والشخصية إلى خالقه عز وجل ... فهو الخالق وهو الوهاب والمعطي...

نعم على المعجب بعلمه وفهمه، أن يؤكد في نفسه أن ماله من فضل وامتياز، ما كان ليتيسر له، لولا فضل الله وإرادته في ذلك.

يقول الأمير(عليه السلام) في شأن علماء الخير : "اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم الله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً... يحفظ الله بهم حججه وبيناته، حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آهٍ أهٍ شوقاً إلى رؤيتهم...".

ما نفع العلم يا أخي إذا لم يحصن بالخلق والأمانة والتواضع ... يقول(عليه السلام) في وصف أهل العلم الخيرين الصادقين : "... واعلموا أن عباد الله، المستحفظين علمه، يصونون مصونه، ويفجرون عيونه، يتواصلون بالولاية، ويتلاقون بالمحبة ... على ذلك عقد خلقهم وأخلاقهم، فعليه يتحاثون، وبه يتواصلون...".

فهل يبغي لمن سمع بهذه الصفات، أن يتمسك، لا سمح الله، بآفة العجب...

وإليك نصاً آخر عن الأمير(عليه السلام) في شأن علماء الخير ... ولنسأل أنفسنا بعد ذلك ... هل إلى العجب بالعلم من سبيل ؟!.

يقول(عليه السلام): "قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره، واستمسك من العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس... مصباح ظلمات، كشاف عشوات، مفتاح مبهمات، دفاع معضلات، دفاع معضلات، دليل فلوات، يقول فيفهم، ويسكت فيسلم، قد أخلص الله فاستخلصه، فهو من معادن دينه، وأوتاد أرضه، قد ألزم نفسه العدل، فكان أول نفي الهي عن نفسه، يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير غاية إلا أمها، ولا مظنة إلا قصدها...".

فهل يمكن للعالم الحقيقي أن يختار سبيل العجب والغرور على سبيل التواضع والنور ؟!.

وأما العجب بكثرة المال، فليعلم أنه لن يدوم له لينفقه، ولن يدوم له ليخلده، فالمال أتى من الغير، بغير رضاه، ويذهب إلى الغير بغير رضانا... والمال لا يدوم أحد، ولا يديم أحد ... وإذا كان الجمع لنا، فالإرث لغيرنا كما يقول الأمير(عليه السلام) في المعجبين بأموالهم : "وقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال، وحذر الإقلال، وأمن العواقب، طول أمل واستبعاد أجل، كيف نزل به الموت، فأزعجه عن وطنه، وأخذه من مآمنه..".

ويقول(عليه السلام) "أما رأيتم الذين يأملون بعيداً، ويبنون مشيداً، ويجمعون كثيراً؟! كيف أصبحت بيوتهم قبوراً، وما جمعوا بوراً، وصارت أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين، لا من حسنة يزيدون، ولا من سيئة يستعينون...".

وأما المعجبون بصلاتهم وسجودهم، ودعائهم وذكرهم، وقيامهم في الليل، وصيامهم في النهار... هؤلاء غلفوا، وبطاعة الشيطان عملوا، غفلوا أن العبادات العظيمات، الخالية من القربات، لا تقبل في السموات. فهل الله تعالى بحاجة إلى عبادتنا؟!.

يقول الأمير(عليه السلام) : " ... فإن الله سبحانه وتعالى، خلق الخلق حين خلقهم، غنياً عن طاعتهم، آمناً عن معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه".

هل نحن أفضل من الملائكة الكرام، الذين يقول فيهم (عليه السلام): "... إنهم على مكانهم منك، ومنزلتهم عندك، واستجماع أهوائهم فيك، وكثرة طاعتهم لك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك، لحقروا أعمالهم، ولزروا على أنفسهم، ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، ولم يطيعوك حق طاعتك".

* * *

التقوى وصفات المتقين:

وجوب اجتناب الذنوب :

أخي وعزيزي، التُقى, وكما ورد في النص الشريف، رئيس الأخلاق ... والتقوى صفة، لا يقوم الإيمان إلا بها، ولا يستقيم المؤمن إلا بالتزامها... وليس كثيراً أن نصرف حياتنا في السعي وراءها وطلبها...

والسؤال الكبير التقليدي هو : كيف تحصل ملكة التقوى؟ .

والجواب على هذا السؤال الكبير، لا ينتهي بحديث أو حديثين... بل هي قصة النفس الإنسانية الأمارة بالسوء... قصة المعاناة مع عدو الداخل ... قصة الجهاد الأكبر... يعرف أولها ويجهل آخرها...

... والعلماء الربانيون ينصحون السالكين لنيل درجة التقوى بأمور أساسية منها: اجتناب الذنوب، ومخالفة النفس ومغالبة الشيطان، والقيام بالعبادات، خاصة الليلية منها والبعيدة عن الرياء والشبهات، ... وينصحون أيضاً باجتناب الشبهات، والتهيؤ للموت والاستعداد للآخرة، والصبر والتصبر، والإخلاص لله في كل الأمور وترك الاهتمام الزائد بالأكل والشرب، وإصلاح السريرة.

ونكتفي الآن بالحديث عن وجوب اجتناب الذنوب، ومخالفة النفس الأمارة بالسوء، حيث لا يجوز التهاون بصغار المعاصي التي تجر بعضها، والقليل مع القليل يصبح كثيراً، وارتكاب الذنوب يقسي القلوب، ويبعد عن الرب.

يقول علي أمير المؤمنين(عليه السلام) عن المتقين : "فهم لأنفسكم ملهمون، ومن أعمالهم مشفقون ... أنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة... إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره، لم يعطها سؤلها فيما تحب... غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ...".

أخي الكريم، إن المؤمن المالك إلى جادة التقوى، هو الذي يعمل بالاحتياط في كثير من الأحيان بل هي أكثرها، حتى لا يقع في المحذور وهو لا يدري... فهو يريد أن يجتنب ما أمر باجتنابه حتى من دون عزيمة منه... وسبيل ذلك : أنه كلما عرض عليك أمران مباحان جائزان، تنظر أيهما أقرب إلى الهوى فتخالفه، لتحاول قدر الإمكان مخالفة الهوى، بل معاندته، ولتعتاد على ذلك، كما يقول الأمير(عليه السلام) : "كان لي فيما مضى أخ في الله، ... وكان إذا بدهه أمران ينظر أيهما أقرب إلى الهوى فيخالفه، فعليكم بهذه الخلائق، فالزموها، وتنافسوا فيها، فإن لم تستطيعوها فاعلموا أن أخذ القليل خير من ترك الكثير".

ويقول(عليه السلام) : "أيها الناس تولوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها".

ولا شك أن الذي يعمل لمخالفة شهواته، سيعاني من نفسه الكثير، وبشكل دائم... وإذا كان الناس يموتون في العمر مرة، فإن مخالف الشهوة يموت في كل ساعة مرة أو أكثر... وإذا كان المجاهد يقتل ويعتبر شهيداً ... فالمجاهد بالجهاد الأكبر سيكون شهيداً من باب أولى ... بل من قدر على هواه كان على غيره أقدر ... ومن ضعف عنه كل على غيره أضعف.

يقول الأمير(عليه السلام) : " ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر فعف : لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة".

تخلص مما تقدم إلى أن اجتناب الذنوب إضافة إلى أن أمر واجب، يجب الحرص عليه في صغيره كما في كبيره للوصول إلى درجة التقوى ... وهذا ما يجب أن يشغل المؤمن، ويستعين بالله على نفسه ... وإن كثرة المراقبة والمحاسبة تضيء الطريق وتهدي السبيل، ليصبح الصعب سهلاً، والمستبعد ميسوراً.

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) : "عباد الله، إن من أحب عباد الله إليه، عبداً، أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه، فقرب على نفسه البعيد، وهون الشديد، نظر فأبصر، قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلى عن الهموم، إلا هماً واحداً انفرد به ، فخرج من صفة العمى، ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى، ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره... واستمسك من العرا بأوثقها، ومن الجبال بأمتنها، فهو من اليقين على

مثل ضوء الشمس، قد نصب نفسه الله، سبحانه، في أربع الأمور، مصباح ظلمات، كشاف عشوات، مفتاح مبهمات، دفاع معضلات، دليل فلوات، يقول فيفهم، ويسكت فيسلم، قد أخلص الله فاستخلصه، فهو من معارف دينه، وأوتاد أرضه، قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه، يصف الحق ويعمل به ... ".

الإخلاص :

... أخي وحبيبي ... الإخلاص لله تعالى في جميع الأعمال أمر واجب، حتى أنه

يبطل العبادة إذا لم يتوافر ... أمر محبب ومراد من كل الناس، بين الشريك وشريكه، والصديق وصديقه، والرفيق ورفيقه، والزوج وزوجه ... وإذا لم يتوافر الإخلاص، فسدت العلاقات، وخربت الرباطات.

... ويقول أهل السلوك وعلماء الأخلاق في الإخلاص : إنه لتجربة النية عن أي شيء... غير الله تعالى، ويعرف ذلك، أو في علاماته: التفكر فيه عز وجل، وفي قدرته، وأفعاله، ويؤدي ذلك إلى المناجاة والشوق إلى اللقاء والآخرة...

... وبسط بعض علماء الأخلاق هذا المعنى بقولهم : أن تقول ربي الله، ثم تستقيم على الجادة كما أمرت، تعمل لله وحده، ولا تحب أن تحمد على ذلك ... فلا تبالي بتعب بذلك، المهم أن تُبرئ ذمتك، وتلقى وجه الله تعالى بنفس مطمئنة.

... يقول مولانا أمير المؤمنين(عليه السلام) : "وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك : إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، دون ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص "من غير تقصير ولا رياء، بالغاً من بدنك ما بلغ".

... ويقول(عليه السلام) أيضاً : " ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام، فمن أعطاها طيب النفس بها، فإنها تجعل له كفارة، ومن النار حجازاً ووقاية...".

... ومن العبادات التي يقوي الإخلاص في النفس، وتؤكده في الروح، الصوم، الذي هو عبادة أساسية أمر بها الأقدمون، كما أمر بها المتأخرون، ولولا أهميتها ما أمروا بها ...، ولا تكون هذه العبادة إلا بالسر بينك وبين الخالق تبارك وتعالى ...

فأنت تصوم وتمتنع عن أمور كثيرة، بإرادتك واختيارك، كالأكل والشرب، وهي

أمور من الصعب جداً للإنسان أن يمتنع عنها في الأحوال العادية ... فيكون

الدافع لصيامه الإيمان والتقوى والإخلاص لله تعالى رب العالمين. كما يقول أمير المؤمنين(عليه السلام) : "... والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق...".

... أخي الكريم، إن من أهم مظاهر الإخلاص التوحيدي الصحيح، أن تستوي أعمال السر مع أعمال العلن، والأعمال الجلية مع الأعمال الخفية، والأعمال التي شهدها الناس، مع الأعمال التي غابوا عنها ... فأنت تقوم بما تقوم به، بدافع الإيمان واليقين والتوحيد، بعيداً عن الشوائب والدواخل والنبات الزائغة... نعوذ بالله تعالى منها. والمخلص، يقول ويفعل، ولا يخالف قوله، لأنه لا يتكلم إلا بنية خالصة، وليس مضطراً للكذب أو المبالغة أو التصنع...

... وقد ورد في نص مبارك عن أمير المؤمنين(عليه السلام) في نهج البلاغة إلى بعض عماله، وقد بعثه على الصدقة قوله(عليه السلام) : "أمره بتقوى الله في سرائر أمره، وخفيات عمله، حيث لا شهيد غيره، ولا وكيل دونه، وأمره ألا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر فيخالف إلى غيره فيما أسر، ومن لم يختلف سره وعلانيته، وفعله ومقاتله، فقد أدى الأمانة، وأخلص العبادة...".

... ونختم بوصية الأمير(عليه السلام) لابنه الحسن(عليه السلام) التي يقول فيها: ... "وأخلص في المسألة لربك، فإن بيده العطاء والحرمان...".

قيام الليل :

... من صفات المتقين الملحوظة في سير الأولياء والصديقين، التهجد في الليل، وإحياؤه وقيامه والتبتل فيه والمناجاة والمسألة والاستغفار والإنابة والركوع والسجود وقراءة القرآن والتفكر والتأمل ... ومن يتق الله يهد قلبه، ويعبده له من حيث لا يحتسب.

وقد ورد في القرآن الكريم وكذلك في أحاديث المعصومين، ما يحير الألباب في أهمية وثواب وفضل قيام الليل ... والتعبد فيه .

... قال تعالى : (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم، إن عذابها كان غراماً". وقال عز وجل : "تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون).

... ولعلك لا ترى في التاريخ عابداً أو صديقاً أو ولياً لا يحي الليل ... ونستطيع أن نقول : إن لذة هذه العبادة لا تدرك إلا من أهلها والقائمين بها ... ولو علم السلاطين لذتها لجالدوا دونها بالسيوف.

يقول الأمير(عليه السلام) : "... وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً، قد أمن العذاب، وانقطع العتاب، وزحزحوا عن النار، واطمأنت بهم الدار، ورضوا المثوى والقرار، الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية، وأعينهم باكية، وكان ليلهم في دنياهم نهاراً، تخشعاً واستغفاراً، وكان نهارهم ليلاً، توحشاً وانقطاعاً، فجعل الله لهم الجنة مآباً، والجزاء ثواباً، وكانوا أحق بها وأهلها، في ملك دائم، ونعيم قائم".

وقال(عليه السلام) في خطبته الشهيرة "القاصعة" : "وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيما الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار، عار الليل، ومنار النهار...".

وفي وصفه لأصحاب النبي(ص) الذين يجب الاقتداء بهم، قال(عليه السلام) : "لقد رأيت أصحاب محمد(ص) ، فما أرى أحداً يشبههم منكم! لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياما، يراوحون بين جباههم وخدودهم، يعملون هذا مرة وهذا مرة أي يضعون خدودهم مرة على الأرض، ومرة جباههم، تعظيماً لله تعالى، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم! كان بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم...".

أخي العزيز، أهل الليل أصحاب القلوب الخائفة الوجلة من سوء العاقبة، وجلهم هذا، ولأنه صادق، يقلقهم في ليلهم، ويظمئهم في نهارهم لصومهم... يحصلون الراحة، بالتعب والمشقة... يكثرون العمل خوفاً من وقوع الأجل ... حياتهم كل حياتهم خاضعة لنهجهم الحياتي هذا ... لهم أسلوب خاص، وطريقة خاصة، وعلامات مميزة... كما يقول أمير المؤمنين(عليه السلام) : "عباد الله، أن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافتة، حتى أسهرت لياليهم وأظمأت هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظمأ، واستقربوا الأجل فباروا العمل، وكذبوا فلاحظوا الأجل".

ويقول(عليه السلام) عن المتقين : "مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان، من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخواني الذاهبون، فحق لنا أن نظمأ إليهم، ونعض الأيدي على فراقهم ...".

ولأهل الليل صفات تميزهم عن غيرهم خاصة في النواحي السلوكية والعبادية، وأكثر ما يمتازون به قيامهم بواجب طاعة الله، وصبرهم عند نزول المصائب وما يستلزم الصبر من الحلم والكرم والعفو والصفح والتجاوز وكظم الغيظ واحتمال المكروه والعفة... وهذه المكارم ليست عزيزة على من اعتاد سهر الليل تهجداً، وتجافياً عن المضاجع الوثيرة، وهمهموا بذكر الله دعاء وتلاوة.

قال الأمير(عليه السلام) : "طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، في معشر أشهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم، أولئك حزب الله، ألا أن حزب الله هم المفلحون".

البكاء من خشية الله تعالى :

... من صفات المتقين، البكاء من خشية الله تعالى، خاصة عند الدعاء والمناجاة والصلاة والسجود والخشوع. وقد ذكر أن البكاء هو سيد الآداب لدلالته على رقة القلب والإخلاص الذي عنده تحصل الإجابة. أما جمود العين فمن قساوة القلب، وقاسي القلب يرد دعاؤه كما ورد في الحديث الشريف.

... ومدح علماء النفس في دراسة أخيرة لهم البكاء واعتبروه تعبيراً عن إنسانية الإنسان، إذ يشعر بعد البكاء براحة نفسية، تماماً كما ترتاح الطبيعة بعد زخات المطر، وتبزغ شمسها الحنون.

... ويقول علماء الطب إن الذي لا يستطيع البكاء مريض بحاجة إلى علاج، لأن العين الطبيعية تجدد غشاءها الدمعي ثلاث عشرة مرة في اليوم.

... ويقول علماء الاجتماع إن البكاء قبل الضحك، هو ما يتميز به الإنسان، وكما أن الحيوان لا يضحك فإنه لا يبكي كذلك، والتعبير عن الألم بالدموع، نوع من التطور الاجتماعي، ونوع من تطور الذكاء الاجتماعي.

... ومن الناحية الإسلامية، فإن البكاء تعبير عن التقوى والخشوع والخضوع والشوق والحب والطاعة... والتوبة والخوف... حيث يقول أمير المؤمنين(عليه السلام) واصفاً أصحاب رسول الله(ص) : "... إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاء للثواب!".

... أخي وحبيبي، وكما تعلم فإن البكاء من خشية الله تعالى انقطاعاً وزيادة في الخشوع، ولا يدخل النار من بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن إلى الضرع، كما ورد عن رسول الله(ص).

كما أن في البكاء خصوصيات وفضائل لا توجد في غيره من أصناف الطاعات، من هنا كان التشديد، وفي أكثر من نص، على التباكي لمن أو يستطع البكاء ... وفي نصوص أخرى أمرا لله تعالى لأنبيائه بالبكاء.

... ويقول أمير المؤمنين علي(عليه السلام) في قوم صالحين راغبين في الله تعالى : "وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر...".

... ووصف قوماً من أهل الصلاح والفلاح لا تلهبهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فقال (عليه السلام) : " وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أمروا بها فقصروا عنها، أو نهوا عنها ففرطوا فيها، وحملوا ثقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الإستقلال بها، فنشجوا نشيجاً، وتجاوبوا نحيباً يعجون إلى ربهم من مقام ندم واعتراف، لرأيت أعلام هدى، ومصابيح دجى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات، في مقعد اطلع الله عليهم فيه، فرضي سعيهم، وحمد مقامهم، ... رهائن فاقة إلى فضله، وأسارى ذلة لعظمته، جرح طول الأسى قلوبهم، وطول البكاء عيونهم...".

أخي العزيز البكاء ليس ضعفاً، كما قد يوحي البعض، وهو ربما يكون كذلك إذا كان لتحصيل هدف شخصي دنيوي... أما إذا كان خوفاً من الله تعالى وشوقاً إليه فلا يكون ذلك ضعفاً.

الإنسان القوي، بغض النظر عن كونه رجلاً أو امرأة ليس هو الإنسان المتحفظ والمكابر والمتكبر، إنما هو الإنسان الذي لا يخجل من عواطفه ولا يخاف أن يعبر عن فرجه أو ألمه.

بل ينبغي ترويض النفس على ذلك، لتنطلق إنسانية الإنسان من الأعمال، وعواطفه من القلب. كما يقول مولانا علي(عليه السلام) : " ... لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً، ولأدعن مقلتي كعين ماء، نضب معينها، مستفرغة دموعها".

الوقوف عند الشبهات :

... من العناوين السلوكية البارزة، التي تميز المتقين عن غيرهم : الوقوف عند الشبهات، أي التنزه بالاحتياط عن كل أمرٍ تحتمل فيه شبهة الحرام أو يشك في جوازه بحسب الظاهر منه، أو بسبب الجهل في حكم الشرع الحنيف فيه.

... والعلماء الكرام، من أهل المسلك والعرفان، عبروا عن هذه الحالة واصطلحوا على تمسيتها "بورع الصالحين" وهو الدرجة الثانية من درجات أهل التقوى، بعد الدرجة الأولى المعروفة بإسم "ورع العدول" والتي تعني الاجتناب عن الحرام وما يوجب الفسق والهوان وبارتكابه يثبت العصيان.

... "ورع الصالحين " الذي نحن بصدد الحديث عنه، وهو الاجتناب عن الشبهات، والوقوف عندها دون تقحمها، ورع الصالحين هذا، ناقشه الأمير(عليه السلام) في نهج البلاغة، وشرحه وأكده ودعا إليه واعتبره درجة عالية من درجات السالكين، من أهل الورع والمتقين، بل جعل(عليه السلام) الوقوف عند الشبهات درجة لا نظير لها في الورع وذلك حيث يقول(عليه السلام) في نهج البلاغة: "... ولا ربح كالثواب، ولا ورع كالوقوف عند الشبهة، ولا زهد كالزهد في الحرام ...".

... وقال(عليه السلام) في غرر الحكم : "الورع ، الوقوف عند الشبهة".

... أخي وعزيزي، ... كما تعلم فإن أمور الحياة، وحكم الشرع فيها، مختلفة، بين الحلال البين والحرام البين ... وهناك أمور مشتبهات، لا يعلمها كثير من الناس، وتوقف عن الحكم عليها كثير من أهل العلم، ولا تكون التقوى وبراءة الذمة، إلا بترك المتشابهات والعمل بالواضحات البينات ... استبراء للدين .. ومن حام حول الشبهة أو شك أن يقع فيها، فهي تدعوه إليها، وتفتنه عن نفسه وفي دينه، وتتزين له، ومن وقع

في الشبهة وقع في الحرام، كما عن رسول الأنام، عليه الصلاة والسلام، ويقول الأمير(عليه السلام) في رسالته المشهورة لعثمان بن حنيف الأنصاري، ممثله في البصرة : "... فما اشتبه عليك علمه، فألفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه، فنل منه".

... وقال(عليه السلام) في وصيته لابنه الحسن : "وليس طالب الدين من خبط أو خلط، والإمساك عن ذلك أمثل".

... ولا تنس يا أخي وحبيبي، أن الشبهة، تشبه الحق، وهذا من الفتن العظيمة على المؤمنين الذين تلتبس عليه الأمور، وتختلط القضايا فيجد الهوى مرتعاً خصباً، ويجد المنافق فرصة لبدعته، ليخلط الأمور على الناس، فيتيهون ويتنكبون عن الجادة، فلو كان الحق خالصاً عن الباطل، لأتبع، ولو كان الباطل خالصاً عن الحق، لاجتنب، يا أخي من شبهة تشبه الحق، ومن فتنة مازجة الخير والشر.

... ومن لطيف ما ذكر في نهج البلاغة في هذا الامر، ما قاله رسول الله(ص) لعلي(عليه السلام) عن الفتنة والشبهات، قال(ص) : "ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة، والأهواء الساهية، فيستحلون الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية، والربا بالبيع".

فقال الأمير(عليه السلام) : " يا رسول الله فبأي المنازل أنزلهم عند ذلك؟ أبمنزلة ردة، أم بمنزلة فتنة؟ فقال : بمنزلة فتنة".

... ووضح مولانا علي(عليه السلام) كيف تخرب الأمم والمجتمعات من الفتن والشبهات فقال(عليه السلام) : "فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق، لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان! فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى".

... وقال(عليه السلام) : "وإنما سميت الشبهة شبهة، لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله، فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى...".

أخي، لا ريب أن الوقوف عن الشبهة، والاحتياط في المسائل الشرعية والحياتية أمر يريده العاقل، ويهمله الجاهل، فالأمن خير من الخطر، خاصة في أمور الآخرة، التي لا تعوض خسائرها، ولا تجبر فوادحها ... من أهمل ذلك أهله الشيطان، ومن راعى، أنقذه الرحمن.

... يقول(عليه السلام) في نهج البلاغة، يصف أخاً له في الله : "وكان إذا بدهه أمران، ينظر أيهما أقرب إلى الهوى، فيخالفه". ثم يقول(عليه السلام) : "وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته، فإن الكف عند حيرة الضلال، خير من ركوب الأهوال".

... كما يقول(عليه السلام) : "ومن تردد في الريب، وطئته سنابك الشياطين".

* * *

الباب الثالث

الجهاد في نـهج البلاغة

... منذ نشأة الخليفة، كان أهل الحق وأهل الباطل، وفي كل مجتمع ومكان فيه البشر، كان الصراع قائماً بين الفرقتين، يحتدم حيناً، ويخبو أحياناً ... ولا بد لكل إنسان أن يُحدد موقفه: أمع هؤلاء أم مع أولئك؟.

... ومن ظن أن نجح في الفرار من المعسكرين، خاب ظنه فهو من أهل الباطل، لا محالة، لأنه لا حياد بين الحق والباطل، وبين الخير والشر... واستطراداً نقول لا حياد بين الإسلام والكفر.

... من هذا المنطلق كان طبيعياً أن يشرع الجهاد في الإسلام، ويبالغ في الاهتمام بشأنه وتعظيمه، بحيث يعتبر فزعاً وأساساً بني عليه الإسلام... بل هو ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها لحفظ حظيرة المؤمنين، ومسيرة الأنبياء والصديقين إلى قيام يوم الدين.

... ولعل من أبرز المواضيع التي هتم بها نهج البلاغة المبارك، هو موضوع الجهاد، إذ قال علي(عليه السلام) : "فرض الله الجهاد ... عزاً للإسلام..".

... ويقول(عليه السلام) في خطبة له مشهورة: "... فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه، ألبسه الله ثوب الذل...".

... فالقوة يا أخي، وفي أكثر الأحيان، وكما تعملنا من التاريخ، ومن الأحداث المعاصرة، القوة لها التأثير الأكبر في فرض الحق، وإرساء قواعده، وردع المفسدين والمجرمين المعتدين... ولولاها لم تستقر دولة ولا مجتمع، ولا يأمن ولا فئة...

... فالقوة مولانا علي(عليه السلام) في نهج البلاغة الشريف: "أيها المؤمنون، إنه من رأى عدواناً يعمل به، ومنكراً يدعى إليه... من أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الظالمين هي السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، قوام على الطريق، ونور في قلبه اليقين".

... وحينما بلغه خبر الناكثين بيعه (عليه السلام) دم عملهم وحملهم مسؤولية الفوضى والشتات، وهددهم بالحرب ... ومما قاله حينها: "فإن أبوا، أعطيتهم حد السيف، وكفى به شافياً من الباطل، وناصراً للحق!".

... فأنت ترى، يا أخي، وفي كل عصر ومصر، وفي كل مكان وجهة، ترى المنتفعين والمفسدين والمعتدين والمتكبرين والمجرمين... كلما سنحت لهم فرصة ما أخروها، وكلما انتهزوا برهة ما فارقوها، حتى يتركوا آثارهم فيها رعباً وخوفاً، دمعة وحزناً، تشريداً وتهجيراً، وهدراً للكرامات، وانتهاكاً للحرمات، وتلك آثارهم تدل عليهم... منذ آلاف السنين والقرون المتطاولة... وحتى يومنا هذا ... في فلسطين ولبنان، والبوسنة والهرسك، والصومال وأفغانستان، وأفريقيا وجنوب شرق آسيا وأميركا الجنوبية...

... فمنهم من يدعي ما ليس له، وآخر يمنح الحق عن أهله... ومنهم من يسرد شعباً عن وطنه، وآخرون يروعون ويهجرون ويحتلون ويستوطنون... وكأن البشر ما خلقوا إلا لإترافهم ... هؤلاء لا يمنع أحد ظلمهم إلا الجهاد وحد السيف... ولن نشعر بالأمن والسلام، حتى نعمل بوصية علي(عليه السلام) فيهم وهي وصية الله إلينا حيث قال (عليه السلام) في نهج البلاغة : "... ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الأرض، فأما الناكثون فقد قاتلت، وأما القاسطون فقد جاهدت، وأما المارقة فقد دوخت...".

... ويقول(عليه السلام) : "... ألا وإني أقاتل رجلين : رجلاً ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه".

... وفي خطبة حاسمة في الناكثين لعهودهم من أهل الجمل يقول(عليه السلام):

"فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلاً واحداً، متعمدين لقتله، بلا جرم جره، لحل لي قتل ذلك الجيش كله، إذ حضروه فلم ينكروا، ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد، دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم!".

... وقال(عليه السلام) : "فلقد كنا مع رسول الله (ص) وإن القتل ليدور على الآباء والأبناء والإخوان والقرابات، فما نزداد علت كل مصيبة وشدة إلا إيماناً، ومضياً على الحق، وتسليماً للأمر، وصبراً على مضض الجراح، ولكنا وإنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام علت ما دخل فيه من الزيغ والإعوجاج والشبهة والتأويل... ".

إخلاص النية في الجهاد :

كثير من المسلمين، من شبابهم وكهولهم وشيوخهم، يرغبون في امتشاق السلاح، والجهاد في سبيل الله تعالى وتبارك... وهذا دليل الإيمان والصدق والإخلاص.

أما الذي لا يحدثون أنفسهم بالجهاد، ولا يظهرون استعداداً وتأهباً لذلك، فالأحرى بهم مراجعة إيمانهم، ومحاسبة أنفسهم، فهم على خطر داهم، فلو وقع عليهم الموت لساعتهم، فلا تجبر خسارتهم، ولا تعوض نكبتهم.

فالمسلم الذي لم يوفقه الله تعالى للمشاركة في الجهاد والعمليات العسكرية، عليه أن يكون مستعداً لذلك، متأهباً، مقداماً، ليصنع نصراً يعز به الإسلام في الدنيا، أو ليلقى الله تعالى شهيداً مغتسلاً بدم الشهادة...

وقد أكد أمير المؤمنين(عليه السلام) أهمية الإخلاص في النية، والصدق في المواطن، والثبات في المواقع... ومما قاله(عليه السلام) : "ولتصدق نياتكم في جهاد عدوكم...".

وفي تعبير له(عليه السلام) عن عظيم صبر شيعته في الحرب وترك الاستسلام يقول(عليه السلام) : "... وطائفة عضوا على أسيافهم، فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين".

وقال(عليه السلام) : "وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة، ولا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والصبر، والعلم بمواضع الحق، فامضوا لما تؤمرون به، وقفوا عندما تنهون عنه...".

أخي وعزيزي، إن النية الخالصة من كل شائبة أساس في العبادات فهذه لا تصح إلا بها، كذلك الجهاد الذي هو من العبادات الجليلة والعظيمة... وإخلاص النية فيه واجب ... فمن لم يأته الموت وهو في ساحة الوغى، جاءه وهو في ساحة النية البيضاء، الخالية من الأدران... وبذلك لو مات على فراشه، فقد مات شهيداً، ووقع ثوابه على ربه الرحيم، اللطيف الخبير، العليم بذات الصدور وما تخفي، فيحصل بالنية ما لم يحصل بالسيف.

يقول مولانا يا سيد المجاهدين علي أمير المؤمنين(عليه السلام) : "... اصبروا على البلاء، ولا تحركوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم، ولا تستعجلوا بما لم يعجله الله لكم، فإنه من مات منكم على فراشه، وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته، مات شهيداً، ووقع أجره على الله، واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام إصلاته لسيفه، فإن لكل شيء مدة وأجلاً".

ويصور(عليه السلام) قمة الصبر والرضا والتسليم لله تعالى عندما يضطر المرء ليعاند عواطفه وأحاسيسه بقتال أبيه أو أبنه أو أخيه ... وهذه الحالة هي من أهم الحالات التي يمتحن فيها الإنسان في نيته ودافع حركته ... فيقول(عليه السلام) : "ولقد كنا مع رسول الله (ص) ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا، يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا عدونا، ومرة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت وأنزل عليه النصر، حتى استقر

الإسلام ملقياً جرانه ومتبوئاً أوطانه، ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم، ما قام للدين عمود، ولا أخضر للإيمان عود" انتهى كلامه(عليه السلام).

وفي نصوص أخرى يظهر(عليه السلام) تذمره(عليه السلام) من الناكثين لعهودهم والكاذبين والخائفين من مواجهة العدو فهو لا يستطيع الإتكال عليهم أو الاعتماد على وعودهم... ولا يستطيع تهديد العدو بهم ... لأنهم قد يخذلونه في اللحظة الحاسمة...

يقول (عليه السلام) : "... أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم، ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم..".

ثم قال(عليه السلام) : "... أف لكم ! لقد لقيت منكم برحاً، يوماً أناديكم ويوماً أناجيكم، فلا أحرار صدق عند النداء، ولا إخوان ثقة عند النجاء".

ويقول(عليه السلام) : "أي دار بعد داركم تمنعون، ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب".

حرمة الفرار من الجهاد :

يجمع الناس على أن من يترك الدفاع عن نفسه وعرضه وماله ووطنه، هو خائن ذليل. والإسلام دين الله تعالى، والفطرة السليمة، لا يخرج عن المتعارف والمتسالم عليه، فيحرم على المسلم الهرب والفرار من الزحف والجهاد، ويجعل ذلك من الكبائر والآثام العظيمة التي تحتاج إلى توبة وإنابة...

وفي نهج البلاغة، العديد من الشواهد والموارد، التي تخاطب الجبناء والمتخاذلين والفارين من الواجب المقدس, في الدفاع عن الأرض والعرض، خاصة وأن فرارهم لا ينجيهم من الذل في الدنيا العاجلة، ولا من الهوان في الآخرة الآجلة.

يقول(عليه السلام) في خطبة له قبل المعركة : " ... واعلموا أنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله، فعاودوا الكر، واستحيوا من الفر، فإنه عار في الأعقاب ونار يوم الحساب...".

ويقول(عليه السلام) : فيمن ترك الجهاد، والعياذ بالله : "فمن تركه رغبة عنه، ألبسه الله ثوب الذل، وشملة البلاء، وديث بالصغار والقماءة، وضرب على قلبه بالإسهاب".

ويقول (عليه السلام) في حث أصحابه على القتال في سبيل الله، وترك الفرار :

"إن في الفرار موجدة الله، والذل اللازم، والعار الباقي، وإن الفار لغير مزيد في عمره، ولا محجور بيته وبين يومه...".

وفي نص، يسهب فيه(عليه السلام) في إظهار تأففه من المتخلفين عن إعداد العدة للقيام بواجب الدفاع المقدس والجهاد لرفع راية التوحيد ... يقول (عليه السلام) : "أف لكم، لقد سئمت عقابكم !أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً ؟ وبالذل من العز خلفا ؟ إذا دعوتكم إلى جهاد عودكم، دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة، تكادون ولا تكيدون، وتنتقض أطرافكم فلا تمتعضون لا ينام عنكم، وأنتم في غفلة ساهون، غلب والله المتخاذلون...".

وفي نص، أكثر ألماً وتذمراً وتقززاً من واقعهم المرير، وخوفهم وجبنهم وحججهم الواهية وأعذارهم الضعيفة ... حيث كانوا يعتذرون تارة من شدة

الحر... وطوراً من البرد ... يتصرفون وكأن الجهاد رحلة المترفين والعابثين.

يقول(عليه السلام) : "... فقبحاً لكم وترحاً، حيث صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويُعصى الله وترضون! فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم : هذه حمارة القيظ، أمهلنا يسبخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارة القر، أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فراراً من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله

من السيف أفر! يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة، والله، جرت ندماً، وأعقبت سدماً، قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً...".

ويتابع(عليه السلام) قائلاً : "فيا عجباً ! عجباً والله، يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقك".

ثم يحذر الأمير من خطورة التقاعس والتخاذل التي تورث خسارة الوطن والأرض واحتلال القرى والمدن. فيقول(عليه السلام) : "ألا ترون إلى أطرافكم قد انتقصت, وإلى أمصاركم قد افتتحت، وإلى ممالككم تزوى، وإلى بلادكم تغزى! انفروا رحمكم الله إلى قتال عدوكم، ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف وتبوءوا بالذل، ويكون نصيبكم الأخس، وإن أخا الحرب الأرق، ومن نام لم ينم عنه".

ويقول(عليه السلام) : "فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان".

ولا بد، وقبل الختام، من الإلفات إلى ملاحظات هامة جداً, وهي أن القائد العسكري والسياسي عليه أن يتحرك بمن يريد الجهاد من الناس، وأما من لا يريد فليترك لأنه سيثبط الهمم... قال(عليه السلام) : " فأنهد بمن أطاعك إلى من عصاك، واستغن بمن انقاد معك عمن تقاعس عنك، فإن المتكاره مغيبة خير من مشهده، وقعوده أغنى من نهوضه".

* * *

وجوب التصدي للفتنة لحفظ الإسلام:

الفتنة في المجتمع كالنار في الهشيم، لا يلبث أن يدرك أولها آخرها، وبدانتها نهايتها. فالصغير من النار كبير، والقليل منها كثير، والمستسخف به منها خطير... فإذا شبت نهبت، وإذا هبت أهلكت.

وهكذا الفتنة، بل لعلها أشهد من ذلك، فالفتنة أشد من القتل ... وأوجب الله تعالى التصدي لها، لأن عدم القضاء عليها، يقويها، لتقضي على الساكت عنها، فضلاً عن الراضي بها.

وأول ما تهدف إليه الفتنة النيل من الإسلام ودعائمه، أهل البيت(عليهم السلام) وأتباعهم، ولا ينفع الندم بعد ذلك.

أمير المؤمنين(عليه السلام) أشير عليه بأن لا يتبع طلحة والزبير، ولا يرصد لهما القتال، فبين مجيباً بأنه لا يخدع، قال: "والله لا أكون كالضبع : تنام على طول اللدم، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها، راصدها ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع، العاصي المريب أبداً، حتى يأتي علي يومي، فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي، مستأثراً علي، منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يوم الناس هذا".

والفرق كبير بيننا، وبين أهل الفتنة وأنصارها، والهمج الرعاع من أتباعها، والعبيد المنقادين لها، ... وإن تستروا بالصلوات والعبادات، لكن، قريباً يكشف زيفهم، وتفضح سرائرهم... ولا تنفع عندها شعارات الوحدة والمحبة والأخوة ... بعد أن لم يحترم ناموسها، ويقدس شأنها.

يقول مولانا الأمير(عليه السلام) في رسالة جوابية إلى معاوية : "أما بعد، فإنا كنا نحن وأنتم، على ما ذكرت من الإلفة والجماعة، ففرق بيننا وبينكم أمس، أما آمنا وكفرتم، واليوم أنا استقمنا وفتنتم، وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً...".

ويقول(عليه السلام) : قبل موته مذكراً الناس، واعظاً لهم: "غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلو مكاني، وقيام غيري مقامي".

لذلك وقف الأئمة من أهل البيت في وجه كل الفتن التي وقعت في عصرهم، وما أكثرها، ولم يسكتوا عن واحدة منها، وإن اختلفت الأساليب، وتعددت الطرق. فهم صمام الأمان لحفظ الإسلام، سلام الله عليهم أجمعين.

وفي خطبة له(عليه السلام) يذكر فيها أهل البيت(عليه السلام) يقول : "هم عيش العلم، وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل".

ويشكو(عليه السلام) ظلامته أمام بعض أصحابه الذين سألوه: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام، وأنتم أحق به؟ فكان مما قاله لهم : "حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه، وسد فوارهم من ينبوعه...".

وختم(عليه السلام) مستشهداً بقوله تعالى : ((فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون)).

وجوب قتال المفسدين :

أخي العزيز، يا محب علي (عليه السلام)، تعلمنا من سيرة مولانا أميرالمؤمنين(عليه السلام) ومن فترة توليه الخلافة، وإن كانت يسيرة جداً ... تعلمنا أن لا نفسح مجالاً لمثيري الفتنة في البلاد الإسلامية بل نقضي على أصولهم كما نقضي على فروعهم، ونستأصل أساسهم كما نستأصل مظاهرهم... حذراً من تمكنهم وشرهم، فيرتاح من مكرهم، مجتمع المسلمين، ويقوم الناب لرب العالمين.

وهذا في الواقع أمر الله تعالى، في استئصال المفسدين في الأرض، "وطاويط" الليل، المصطادين في الماء العكر، الطفيليين الذين لا يتكاثرون إلا في المستنقعات الآسنة، والأكوام النتنة... القتالين للناس بخططهم وشيطناتهم، فالتنة أشد من القتل، كما قال الله تعالى، ولعلها كذلك، لأنها قتل جماعي، أو قتل بلا حساب.

يقول(عليه السلام) في خطبته المشهورة بإسم القاصعة : "ألا وقد قطعتم قيد الإسلام، وعطلتم حدوده، وأمتُّم أحكامه، ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث، والفساد في الأرض، فأما الناكثون، فقد قاتلت، وأما القاسطون، فقد جاهدت، وأما المارقة، فقد دوخت، وأما شيطان الردهة فقد كفيته بصعقة سمعت لها وجبة قلبه، ورجة صدره، وبقيت بقية من أهل البغي ولئن أذن الله في الكرة عليهم، لأديلن منهم ...".

وكان(عليه السلام) قد أشار إلى نعمة الأمن الاجتماعي عند القضاء على المفسدين (وهي نعمة لا تقدر ولا تثمن)، مقابل القلق والخوف والفواجع التي تظهر مع ظهور المفتنين، فقال(عليه السلام) : "فإن الله سبحانه، قد امتن على جماعة هذه الأمة، فيما عقد بينهم، من حبل هذه الإلفة التي ينتقلون في ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل ثمن، وأجل من كل خطر.

"واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تعقلون من الإسلام إلا باسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه".

ويتابع(عليه السلام) قائلاً : "النار ولا العار ! كأنكم تريدون أن تكفنوا، الإسلام على وجهه انتهاكاً لحريمه، ونقضاً لميثاقه الذي وضعه الله لكم حرماً في أرضه، وأمناً بين خلقه، وإنكم إن لجأتم إلى غيره، حاربكم أهل الكفر، ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرون ولا أنصار ينصرونكم، إلا المقارعة بالسيف حتى يحكم الله بينكم".

"وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه، وأيامه ووقائعه، فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه، وتهاوناً ببطشه، ويأساً من بأسه، فإن الله سبحانه، لم يلعن القرن الماضين بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي، والحلماء لترك التناهي !" انتهى كلامه (عليه السلام)، والتحية والإكرام.

وقبل أن نختم، نتطرق إلى كلمة فصل له(عليه السلام) فيها من الحسم واليقين، ما يثبت القلوب عند الشدائد، في وجوب قتال الفتانين أو أهل الردة عن دين الله، والعياذ بالله تعالى من ذلك. فقد قال بعد إتمام استعداده لحرب أهل الشام : "ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، لم أر لي فيه، إلا القتال، أو الكفر بما جاء به محمد (ص)".

مدح المؤمنين الزاحفين لضرب الفتنة :

... في أكثر الأحيان لا يستطيع شخص واحد، بقرار أو بخطاب أن يئد الفتنة، ويقضي عليها ... بل لا بد من تكاتف جماعة المؤمنين، أو جماعة من المؤمنين، يقام الواجب بهم، وتحفظ بيضة الإسلام بقيامهم ونصرتهم.

... يقول الأمير سلام الله عليه مفتخراً بجنده وجيشه، معتزاً بتاريخهم وحاضرهم، ممن امتحنوا فثبتوا، يقول : "وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم، متسربلين سرابيل الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، وقد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصابها في أخيك وخالك وجدك وأهلك (وما هي من الظالمين ببعيد).

... وفي تحمس أنصاره والصالحين من أصحابه : ومدحتهم والافتخار بهم وتعظيم دورهم، يقول(عليه السلام) : أنتم الأنصار على الحق، والإخوان في الدين، والجنن يوم البأس، والبطانة دون الناس، بكم أضرب المدبر، وأرجو الطاعة المقبل، فأعينوني بمناصحة خلية من الغش، سليمة من الريب، فوالله إني لأولى الناس بالناس !" .

ويسترسل الأمير(عليه السلام) في مدح صحبه المخلصين، من جهة، وفي تحدي رأس الفتنة ورمزها معاوية، من جهة أخرى فيقول(عليه السلام) بقوة يقينه وتحديه لنصرة الحق الذي يمثل: "وأما طلبك إلى الشام، فإني لم أكن لأعطيك اليوم؟ ما منعتك أمس. وأما قولك : إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة، ومن أكله الباطل فإلى النار، وأما استواؤنا في الحرب والرجال، فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا، من أهل العراق على الآخرة...".

وفي رسالته إلى أهل الكوفة المخلصين المجاهدين المضحين، بعد فتح البصرة، يقول(عليه السلام) : "وجزاكم الله من أهل مصر عن أهل بيت نبيكم أحسن ما يجزي العاملين بطاعته، والشاكرين لنعمته، فقد سمعتم وأطعتم، ودعيتم فأجبتم".

هكذا كان أمير المؤمنين(عليه السلام) يخاطب جنده وأنصاره ... وكم نأسف وأشتاق عندما قتل في الحروب المفروضة عليه(عليه السلام) خيرة الصحابة والعباد والناسكين... وعظم أسفه عندما رأى بعضاً من البقية يتخاذل أو يجبن أو يبيع آخرته بدنيا غيره ... فقال(عليه السلام) : "أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة... أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن، فأحكموه، وهيجوا إلى الجهاد فولهوا وله اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً، وصفاً صفاً، بعض هلك، وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزون عن الموتى، مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخواني الذاهبون، فحق لنا أن نظمأ إليهم، وتعض الأيدي على فراقهم...".

خطر المنافقين على مجتمع المسلمين:

الحمد لله الذي علم السرائر، وخبر الضمائر، له الإحاطة بكل شيء، والغلبة لكل شيء، والقوة على كل شيء.

أخي الحبيب، السالك إلى الله تعالى، من أبرز فئات المجتمع التي يُخشى منها على الإسلام، وحذر منها المسلمون، النفاق والمنافقون ... هذه الفئة الخطرة التي تُبطن خلاف ما تظهر، وتخفي خلاف ما تعلن، تتجلبب بزي الصالحين وواقعها أشد من المشركين، وتتظاهر بمظهر أهل التقوى وعملها أخطر من عمل الكافرين.

لقد حذر الله تعالى من المنافقين في القرآن الكريم، وذكر صفاتهم، وأنزل سورة كاملة عنهم، وعشرات الآيات تناولتهم ... وما ذلك إلا تأكيد على خطرهم، وعلى خبث دورهم...

وأما الروايات عنهم ففاقت المئات ... وأما معاناة المسلمين منهم في التاريخ فتكاد لا تحصى، ولا يخلو منهم مصر ولا عصر، ولا أرض ولا زمن ... فهم جزء من المجتمع، ومثل الخبيث إبليس فيه.

ويكفي فيما نحن فيه، ما رواه مولانا الأمير، بعد التجربة المريرة عن سيد المرسلين محمد(ص) أنه قال: "وإني لا أخاف على أمتي، مؤمناً ولا مدركاً، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان، عالم اللسان، يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون".

أما صفات المنافقين، ولأهميتها، فنتحدث عنها بحول الله وقوته في موضع آخر.

ومن أهم السبل لمعالجة النفاق، والعياذ بالله، الإخلاص لله تعالى، والصدق مع النفس والناس، وصدق القول والفعل، والتصديق بما جاء به الأنبياء والمرسلون، والاقتداء بالسلف الصالح ... وكل هذا يأتي بعد عرض النفس على القرآن الكريم، لبرمجتها وفق تعاليمه ... ويأتي أيضاً بتحسين الخلق.

يقول الأمير(عليه السلام) في موعظة له حول فضل القرآن : "واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم فإن فيه شفاء، من أكبر الداء : وهو الكفر والنفاق، والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله".

أما في شأن تحسين الخلق، فمن الطرق المختصرة إليه، الصدق في اللسان الموافق لما في الجنان... يقول(عليه السلام) : "ثم إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها، واجعلوا اللسان واحداً، وليخزن الرجل لسانه، فإن هذا اللسنان جموح بصاحبه، والله ما أرى عبداً يتقي تقوى نفعه حتى يخزن لسانه، وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه...".

أما عاقبة المنافق في الدنيا فلا بد منها فضلاً عن الآخرة، يقول(عليه السلام) في موعظة له : "إن من عزائم الله في الذكر الحكيم، التي عليها يثيب ويعاقب، ولها يرضى ويسخط، أنه لا ينفع عبداً، وإن أجهد نفسه، وأخلص فعله، أن يخرج من الدنيا، لاقياً لابه بخصلة من هذه الخصال، لم يتب منها : أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يعر بأمر فعله غيره، أو يستنتج حاجة إلى الناس، بإظهار بدعة من دينه، أو يلقى الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين، اعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهة".

أخي، رأينا بحسب رأي الأمير(عليه السلام) فيما تقدم شدة خطر المنافقين على مجتمع المسلمين، والعلاجات المقترحة، والعواقب المترتبة ... أعاذنا الله وإياكم من كيدهم... وسنرى الآن علامات المنافقين وخصالهم.

علامات المنافقين :

بات من الواضح أن المنافقين أشد خطراً على مجتمع المسلمين من المشركين والكافرين، لأنهم يحاربون من الداخل ويحملون أسراره ويتظاهرون بالإسلام، بينما أولئك يحاربون من الخارج ويظهرون الكفر، فالحذر منهم واضح للجميع.

والسؤال الأهم، في هذا الخضم هو : هل للمنافقين علامات تميزهم عن غيرهم، ويعرفون بها؟ وما هي هذه العلامات؟

في الإجابة نقول : من أهم علامات المنافقين التلون بحسب الأشخاص والمناسبات، فيغيرون كلامهم وحركاتهم وابتساماتهم، بحسب الرياء الذي يرجى من ورائه رضى الآخرين، وإن كان في ذلك غضب الله تعالى.

ومن علاماتهم أنهم يتكلمون بالخير والنصيحة، وقد يستشهدون بالآيات والروايات ونصوص الحكماء، فتظن أن كلامهم دواء وشفاء ونقاء ... ثم ترى من أعمالهم ما يخالف ذلك، وما يجانب طريق الحق والهداية...

ومن علامات المنافقين أنك تجدهم في أهم المواقع والوقائع، كأنهم الحامي والمدافع، يعطون رأيهم دون مشورة ويتزلفون ويزينون ويستعينون بالكلام الجميل، والدمع الكثير... يتمادحون، ويتبادلون الثناء والتفخيم والألقاب، بلا حد ولا حساب، ثم تعجب من انتظارهم للحساب الذي يرجونه بلا عقاب.

ومن أهم علاماتهم، أنهم يحملون لكل سؤال جواباً، ولكل حدث حساباً ... وكل حق له عندهم باطل مهيأ، وكذب معبأ ... هم حزب الشيطان أعداء حزب الله حزب الرحمن.

وفي ملخص لكل ما تقدم ... وفي خلاصة لكل صفات وعلامات المنافقين، يتحدث أمير المؤمنين عنهم بإسهاب وعمق، يقول صلوات الله تعالى وسلامه عليه في شأن المنافقين.

"أوصيكم، عباد الله، بتقوى الله، وأحذركم أهل النفاق، فإنهم الضالون المضلون، والزالون، المزلون، يتلونون ألواناً، ويفتنون إفتناناً ويعمدونكم بكل عماد ويرصدونكم بكل مرصاد، قلوبهم دوية وصفاحهم نقية، يمشون الخفاء، ويدتون الضراء، وصفهم دواء، وقولهم شفاء، وفعلهم الداء العياء حسدة الرخاء، ومؤكدوا البلاء، ومقنطو الرجاء، لهم بكل طريق صريع، وإلى كل قلب شفيع، ولكل شجو دموع، يتقارضون الثناء، ويتراقبون الجزاء، إن سألوا ألحفوا وإن عذلوا كشفوا، وإن حكموا أسرفوا، قد أعدوا لكل حق باطلا، ولكل قائم مائلاً، ولكل حي قاتلاً، ولكل باب مفتاحاً، ولكل ليل مصباحاً، يتوصلون إلى الطمع باليأس، ليقيموا به أسواقهم، وينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشبهون ويصفون فيموهون، قد هونوا الطريق، وأضلعوا المضيق، فهم لمة الشيطان، وحمة النيران : أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون" انتهى كلامه(عليه السلام).

ومن العلامات الفارقة للمنافق أنه يكثر من الكلام من دون أن يتدبره ويفكر به بل ينطق بكل ما يراه مناسباً بحسب رأيه. يقول الأمير سلام الله تعالى عليه : "وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه، وأن كان شراً واراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ماذا له، وماذا عليه".

هذه يا أخي أهم علامات المنافقين، التي يعرفون بها، نجانا الله تعالى منها، ومن كيدهم، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

من أساليب أهل الفتن :

من مصلحة أهل الفتن في كل الأوقات، تأليب الناس على الخصم، ليأمنوا الحد الأدنى من إثارة علامات الاستفهام حوله، إضافة لإشاعة الفرقة والخلاف، وتحريك العواطف، والإيحاء بتهديد المصالح، فتقوم فئات من الناس، خاصة الأكثرية الصامتة أو الغافلة، تقوم ضد الخصوم المعترضين.

وهذا الأسلوب مستعمل من قديم الزمان، وفي فجر الإسلام، حيث تذكر النصوص، أن معاوية، كان يحاكي عواطف الناس في ضرورة حفظ شبابهم ورجالهم، وسحبهم من المعركة، والحفاظ على مجتمع العرب وأصوله كل ذلك ليس حباً بالقوم، بل زرعاً للفتنة في صفوفا العامة، وحتى تمنع الأم ابنها على موالاة علي(عليه السلام) ، والزوجة زوجها، والأخت أخاها.

كان علياً(عليه السلام) رد على هذه الإدعاءات والافتراءات بحسم وقوة، وأفهم الناس، أن القضية ليست قضية حياة أو موت، قرابة أو عاطفة ... بقدر ما هي مصلحة للإسلام، ونصر لدين الله عز وجل، وفوز بالرضى والجنة، فقال(عليه السلام) في رسالة جوابيه إلى معاوية الداهية في استدرار عطف الناس، وتحريك مشاعرهم...

قال(عليه السلام): "... وأما قولك : إن الحرب قد أكلت العرب، إلا حشاشات أنفس بقيت، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة، ومن أكله الباطل فإلى النار... وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة".

ومن بين أساليب الفتانين أيضاً، الحديث عن الوحدة والسلام والمحبة والأخوة !!! ... ومن نرى ونسمع مثل هذه الكلمات والمواقف، التي ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب والنقمة ... وكم نسمع اليوم في المحافل الدولية هذه الألفاظ.. والشعوب المستضعفة تقتل وتهجر وتسبى وتظلم... ولا يسمح لها بحظ قليل من الحياة العزيزة الكريمة ... بينما العناوين السليمة والإنسانية، تضج منها الآذان، والشعارات تضيق بها الصحف والجدران.

وينبغي علينا أن لا نحرص أو ننوه في غياهب هذه العناوين الزائفة، والشعارات الراجفة ... ونصم آذاننا عن بكاء الأطفال، وعويل الثكالى، وأنين الجرحى، وآهات المعذبين...

فالفرق واضح بين الإيمان والكفر، والاستقامة والضلالة، يقول الأمير(عليه السلام) في رسالة له لركن لركن الفتنة معاوية " ... أما بعد، فإنا كنا نحن وأنتم على ما ذكرت، من الإلفة والجماعة، ففرق بيننا وبينكم أمس، أنَّا أمنا وكفرتم، واليوم أنا استقمنا وفتنتم، وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً...".

ويقول(عليه السلام) في خطبة له بعد قتل طلحة والزبير: "بنا اهتديتم في الظلماء، وتسنمتم ذورة العلياء ... ما زلت أنتظر لكم عواقب الغدر، وأتوسّمكم بحلية المغتربين، حتى سترني عنكم جلباب الدين، وبصرنيكم صدق النية، أقمت لكم على سنن الحق في جواد المضلة، حيث تلتقون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميهون".

أخي : إن المراوغة والاحتيال المستعملة عند أهل الفتنة ... لا ينبغي بل لا يجوز أن تفت من عزيمتنا في محاربتها وإزهاقها ... يقول :(عليه السلام) "أيها الناس، فإني فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها، واشتد كلبها... إن الفتن إذا أقبلت، شبهت، وإذا أدبرت نبهت...".

ويقول (عليه السلام) في مورد آخر : " فنهضت في تلك الأحداث، حتى راح الباطل، وزهق، واطمأن الدين وتنهنه".

هذا قليل من مواقفه (عليه السلام) في شأن الفتنة، ولعلنا نوفق لتبيان المزيد منها، ولا قوة إلا بالله.

الموقف من رأس الفتنة :

أخي، نور عيني، من غير الجائز، ترك زعماء الفتنة، يسرحون ويمرحون، يخططون ويفسدون، دون عقاب. فأهل الفتنة والبغي، من أصحاب الجرائم الكبيرة والجليلة، الذين عظم خطرهم، وتشامخ بغيهم، وتجدر فسادهم، لا بد عن قلعهم، من أساسهم الذي أسسوا، وطريقهم الذي انتهجوا ... ولا بد من معاقبتهم، من قبل ولي أمر المسلمين، المؤتمن على دينهم ودنياهم... ولا بد من صدهم، ليعتبر المعتبرون، ويتعظ المتعظون، ويأمن المستضعفون... ولا تسول الأنفس لضعافها، في تعظيم الفتنة وامتطائها.

أما التساهل معهم فلعمري، لا تؤمن عواقبه، ولا يستكان إلى مستقبله، ولا تحفظ فيه النفوس.

ففي ذكر أصحاب الجمل، يقول الأمير أمير البيان، (عليه السلام) : "فقدموا على عاملي بها وخزان بيت مال المسلمين، وغيرهم من أهلها، فقتلوا طائفة صبراً، وطائفة غدراً، فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلاً واحداً، معتمدين لقتله، بلا جرم جره، لحل لي قتل ذلك الجيش كله، إذ حضروه فلم ينكروا، ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد، دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم ! ".

أخي العزيز: حتى يعي الناس خطورة ما يقوم به المنافقون ويساهموا في استئصالهم، لا بد من شن حرب إعلامية عليهم، إظهاراً لمساوتهم، وتبياناً لخطورتهم... وإلا فلن يعرف الناس ضرورة ردعهم، وردهم عن بغيهم بالعقاب والحساب. إذ يجب تجنيد المجتمع، كل المجتمع، للمساهمة في حرب أهل العدوان، والظلم والطغيان.

وفي ذكر السائرين نحو البصرة لقتاله، يقول الأمير(عليه السلام) في بيانه :

"فقدموا على عمالي، وخزان بيت المسلمين الذي في يدي، وعلى أهل مصر كلهم في طاعتي وعلى بيعتي، فشتتوا كلمتهم، وأفسدوا علي جماعتهم، ووثبوا على شيعتي، فقتلوا طائفة منهم غدراً، وطائفة عضو على أسيافهم، فضاربوا بها، حتى لقوا الله الصادقين".

وفي ضمن تشكيه(عليه السلام) من طلحة والزبير يقول : "اللهم إنهما قطعاني وظلماني، ونكثا بيعتي، وألبا الناس علي".

وفي إظهار الخطر على بلاد المسلمين يقول(عليه السلام) مستنفراً ومستفزاً

المسلمين: "ألا ترون إلى أطرافكم قد انتفضت، وإلى أمصاركم قد افتتحت، وإلى ممالككم تزوى، وإلى بلادكم تغزى!".

وفي خطورة معاوية يقول سلام الله عليه، في رسالة مفصلة له: "وأرديت جيلاً من الناس كثيراً، خدعته بغيك، وألقيتهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهم ونكصوا، على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على أحسابهم، إلا من فاء من أهل البصائر، فإنهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى الله من مؤازرتك إذ حملتهم على الصعب، وعدلت بهم عن القصد، فاتق الله يا معاوية في نفسك... فإن الدنيا منقطعة عنك والآخرة قريبة منك، والسلام".

بهذا الكلام القاطع، وبهذه الصراحة الواضحة، خاطب علي(عليه السلام) ، رمز الفتنة وشعارها معاوية... بل كان منه (عليه السلام) ما هو أصرح من ذلك، في رسالته لزياد بن أبيه عندما أراد معاوية أن يستدرجه ويستلحقه به. قال : "وقد عرفت أن معاوية، كتب إليك يستزل لبك... فاحذره، فإنما هو الشيطان...".

هذه بعض مواقفه (عليه السلام) من رأس النفاق والفتنة، نجانا الله من عدوانهم وكيدهم.

فضح الفتنة أمام الناس :

أخي أيها العزيز، الوضوح ودفع الشبهات والشجاعة، عناصر لا بد أن تتعاضد لوأد الفتنة قبل أن تشب، ... والفتنة أشد من القتل.

فلقد شاء الله تعالى لأنبيائه وأوليائه وأتباعهم، أن يتصدوا للفتن التي يصطنعها الأشرار والفجار، والطامعون والحساد، وضامروا السوء. والتصدي هذا، بحاجة إلى صبر وأناة، وشرح وتوضيح، وتصريح وتلميح، وإلى الاستعانة بالشواهد من الحاضر والتاريخ، وبيان الأمور المتشابهات، والوقوف في وجه الضلالات، وفضح رؤوس الفتنة ومعتقدهم، ونهجهم وأسرارهم، وكيدهم وأعمالهم.

وباختصار تجب تعرية أرباب الفتنة أمام الرأي العام، من خلال رسائل الإعلام، حتى لا يبقى أي إبهام، في مجتمع الأنام، ولئلا يسلب منهم السلام، ويسيطر أهل الهوى والهيام، والمدعون كذباً للإسلام.

يقول الأمير(عليه السلام) : "... واعملوا أنكم أن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به، حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنهم عيش العلم، وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم...".

فيا أخي العزيز : لا بد لي ولك أن نتعاون لفضح المتآمرون، المعشعشين في داخل مجتمعنا، ولا يحق لي ولا لك أن نتهرب من المسؤولية، لأن قمع المنكر ودحضه لا يكونان إلا بتأزرنا وتعاضدنا، وهذا واجب علينا كما أفتى الفقهاء، وأقر العملاء...

فأهل الفتنة يغرون الناس بالهوى، وطبيعة الناس ميالة إليه... فيترعرع الباطل وله حُماته، ويضعف الحق وقليل أنصاره، ويكثر الكذب عند أهل الفتنة، لتزيين معتقدهم وباطلهم، ويفخرون بذلك، وينسبونه إلى الحنكة والذكاء، والفطنة والدهاء، وهم للحق ناصبوا العداء، ويهشون برياء آذانهم صماء، وعيونهم عن الحق عمياء، وهم كل الداء، ولا من دواء. وأهل الحق والطاعة والمعروف في إعياء، وقلوبهم في منتهى النقاء، ونفوسهم معلقة بالسماء، وكلماتهم كلم الله، لا تكف عن النداء، ويبقى لهم أمل ورجاء، مهما بعد اللقاء، مع الأنصار والأحياء.

يقول الأمير(عليه السلام) عن الزمان الآتي : "وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان، ليس شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حق تلاوته، ولا أنفق، إذا حرف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر! فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته : فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد، لا يؤويهما مؤو. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان، في الناس، وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم! لأن الضلالة لا توافق الهدى، وإن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب، وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطه وزبره ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة، وسموا صدقهم على الله قربة، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة".

انتهى كلامه(عليه السلام) ... نسأل الله تعالى أن يهدينا بهداه، وأن يوفقنا لمكافحة الفتن، وتبصير الناس بها، لنتعاون جميعاً لردعها والقضاء عليها.

وأد الفتنة في مهدها :

كل مجتمع من مجتمعات التاريخ، يتعرض في بعض مراحل وجوده، للاهتزاز والاضطراب، لسبب داخلي أو خارجي. وأخطر الاهتزازات، وأفتك الاضطرابات، تلك التي تكون من الداخل، ومن أهل البيت الواحد، الذي يفترض، يعاضد بعضه بعضاً، ويساند جزءه الآخر...

وهذه الظاهرة الخطيرة، والحالة المريرة، اصطلح على تسميتها بالفتنة ... ومعناها لغة : الإحراق، والابتلاء والمحنة، على ما قبل.

هذه الفتنة يجب وأدها في مهدها، وخنقها في بدئها، لأنها لو كبرت وشابت، بطشت وهابت، ... فهي عدو داخلي، عارف بالأسرار مطلع على الأخبار، خبير بالأشخاص والمواقع، مميز بين القوي والضعيف، والغاوي والعفيف، ... يعرف المفاصل الخطيرة، والمواطن الجليلة... فالأسهل أن نوقف هذه الفتنة وهي صغيرة، يمكن السيطرة عليها، خير من أن تتجذر وتصبح كبيرة، تصعب الإحاطة بها... فهي غاوية باغية، مشؤومة ناعية، الخراب سبيلها، والدمار طريقها، تتغذى من القيل والقال، والدماء والنار...

والفتنة تبدأ خفية، وتظهر جلية ... يعلمك أنها صغيرة لا تضر، فإذا بها كبيرة تورث العلقم المر، ... تظن أنها انتهت من ذلك السلطان، فإذا بها حاضرة في كل آن... الأول من البغاة، يمهد الثاني، والثاني يسلم الثالث... وقليل من يسلم منها، ويصان من كيدها.

رجالها متنافسون، وأركانها متباعدون، يجتمعون عند المصالح الصغيرة، ويتهربون عند القضايا الكبيرة، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى،... يخيل إليك أنهم رجل واحد، وحقيقتهم رجال متباعدون، متكالبون، دنيئون، متلاعنون، متباغضون، هم أخطر على الدين من أعدائه، أنهم يفرقون بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وأرحامه وبنيه، وعشيرته التي تؤويه... وإذا استفحلت الفتنة فعلى الإسلام السلام، في بلاد الإسلام.

في نهج البلاغة المبارك، يحذر الأمير، عليه صلوات الخبير البصير، من الفتنة الدفينة، التي قد تظهر في أي وقت دون سابق حساب، فيقول(عليه السلام) : "ثم إنكم معشر العرب، أغراض بلايا قد اقتربت، فاتقوا سكرات النعمة، واحذروا بوائق النقمة، وتثبتوا في قتام العشوة واعوجاج الفتنة عند طلوع جنينها، وظهور كمينها، وانتصاب قطبها، ومدار رحاها، تبدأ في مدارج خفية، وتؤول إلى فظاعة جلية".

"شبابها كشباب الغلام، وآثارها كآثار السلام يتوارثها الظلمة بالعهود! أولهم قائد لأخرهم، وآخرهم مقتد بأولهم، يتنافسون في دنيا دنية، ويتكالبون على جيفة مريحة، وعن قليل يتبرأ التابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون

عند اللقاء، ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف، والقاصمة الزحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، وتضل رجال بعد سلامة، وتختلف الأهواء عند هجومها، وتلتبس آراء عند نجومها، من أشرف لها قصمته، ومن سعى فيها حطمته، يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة! قد اضطرب معقود الحبل، وعمي وجه الأمر، تغيض فيها الحكمة، وتنطق فيها الظلمة... يضيع في غبارها الوحدان، ويهلك في طريقها الركبان، ترد بمر القضاء، وتحلب عبيط الدماء، وتثلم منار الدين، وتنقض عقد اليقين، يهرب منها الأكياس، ويدبرها الأرجاس، مرعاد مبراق، كاشفة عن ساق، تقطع فيها الأرحام، ويفارق عليها الإسلام، بريها سقيم، وظاعنها مقيم".

إنتهى كلامه، عليه صلوات الرب الرحيم... وقد بين بمنتهى التوضيح، علامات الفتنة، وضرورة ردعها في مهدها... ونختم بقول له (عليه السلام) يدل على مقدار ثباته ويقينه عند البلاء والامتحان، يقول : "ما شككت في الحق مذ أريته! ثم يوجس موسى(عليه السلام) خيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال!".

الباب الثالث

الجهاد في نـهج البلاغة

... منذ نشأة الخليفة، كان أهل الحق وأهل الباطل، وفي كل مجتمع ومكان فيه البشر، كان الصراع قائماً بين الفرقتين، يحتدم حيناً، ويخبو أحياناً ... ولا بد لكل إنسان أن يُحدد موقفه: أمع هؤلاء أم مع أولئك؟.

... ومن ظن أن نجح في الفرار من المعسكرين، خاب ظنه فهو من أهل الباطل، لا محالة، لأنه لا حياد بين الحق والباطل، وبين الخير والشر... واستطراداً نقول لا حياد بين الإسلام والكفر.

... من هذا المنطلق كان طبيعياً أن يشرع الجهاد في الإسلام، ويبالغ في الاهتمام بشأنه وتعظيمه، بحيث يعتبر فزعاً وأساساً بني عليه الإسلام... بل هو ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها لحفظ حظيرة المؤمنين، ومسيرة الأنبياء والصديقين إلى قيام يوم الدين.

... ولعل من أبرز المواضيع التي هتم بها نهج البلاغة المبارك، هو موضوع الجهاد، إذ قال علي(عليه السلام) : "فرض الله الجهاد ... عزاً للإسلام..".

... ويقول(عليه السلام) في خطبة له مشهورة: "... فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه، ألبسه الله ثوب الذل...".

... فالقوة يا أخي، وفي أكثر الأحيان، وكما تعملنا من التاريخ، ومن الأحداث المعاصرة، القوة لها التأثير الأكبر في فرض الحق، وإرساء قواعده، وردع المفسدين والمجرمين المعتدين... ولولاها لم تستقر دولة ولا مجتمع، ولا يأمن ولا فئة...

... فالقوة مولانا علي(عليه السلام) في نهج البلاغة الشريف: "أيها المؤمنون، إنه من رأى عدواناً يعمل به، ومنكراً يدعى إليه... من أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الظالمين هي السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، قوام على الطريق، ونور في قلبه اليقين".

... وحينما بلغه خبر الناكثين بيعه (عليه السلام) دم عملهم وحملهم مسؤولية الفوضى والشتات، وهددهم بالحرب ... ومما قاله حينها: "فإن أبوا، أعطيتهم حد السيف، وكفى به شافياً من الباطل، وناصراً للحق!".

... فأنت ترى، يا أخي، وفي كل عصر ومصر، وفي كل مكان وجهة، ترى المنتفعين والمفسدين والمعتدين والمتكبرين والمجرمين... كلما سنحت لهم فرصة ما أخروها، وكلما انتهزوا برهة ما فارقوها، حتى يتركوا آثارهم فيها رعباً وخوفاً، دمعة وحزناً، تشريداً وتهجيراً، وهدراً للكرامات، وانتهاكاً للحرمات، وتلك آثارهم تدل عليهم... منذ آلاف السنين والقرون المتطاولة... وحتى يومنا هذا ... في فلسطين ولبنان، والبوسنة والهرسك، والصومال وأفغانستان، وأفريقيا وجنوب شرق آسيا وأميركا الجنوبية...

... فمنهم من يدعي ما ليس له، وآخر يمنح الحق عن أهله... ومنهم من يسرد شعباً عن وطنه، وآخرون يروعون ويهجرون ويحتلون ويستوطنون... وكأن البشر ما خلقوا إلا لإترافهم ... هؤلاء لا يمنع أحد ظلمهم إلا الجهاد وحد السيف... ولن نشعر بالأمن والسلام، حتى نعمل بوصية علي(عليه السلام) فيهم وهي وصية الله إلينا حيث قال (عليه السلام) في نهج البلاغة : "... ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الأرض، فأما الناكثون فقد قاتلت، وأما القاسطون فقد جاهدت، وأما المارقة فقد دوخت...".

... ويقول(عليه السلام) : "... ألا وإني أقاتل رجلين : رجلاً ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه".

... وفي خطبة حاسمة في الناكثين لعهودهم من أهل الجمل يقول(عليه السلام):

"فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلاً واحداً، متعمدين لقتله، بلا جرم جره، لحل لي قتل ذلك الجيش كله، إذ حضروه فلم ينكروا، ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد، دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم!".

... وقال(عليه السلام) : "فلقد كنا مع رسول الله (ص) وإن القتل ليدور على الآباء والأبناء والإخوان والقرابات، فما نزداد علت كل مصيبة وشدة إلا إيماناً، ومضياً على الحق، وتسليماً للأمر، وصبراً على مضض الجراح، ولكنا وإنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام علت ما دخل فيه من الزيغ والإعوجاج والشبهة والتأويل... ".

إخلاص النية في الجهاد :

كثير من المسلمين، من شبابهم وكهولهم وشيوخهم، يرغبون في امتشاق السلاح، والجهاد في سبيل الله تعالى وتبارك... وهذا دليل الإيمان والصدق والإخلاص.

أما الذي لا يحدثون أنفسهم بالجهاد، ولا يظهرون استعداداً وتأهباً لذلك، فالأحرى بهم مراجعة إيمانهم، ومحاسبة أنفسهم، فهم على خطر داهم، فلو وقع عليهم الموت لساعتهم، فلا تجبر خسارتهم، ولا تعوض نكبتهم.

فالمسلم الذي لم يوفقه الله تعالى للمشاركة في الجهاد والعمليات العسكرية، عليه أن يكون مستعداً لذلك، متأهباً، مقداماً، ليصنع نصراً يعز به الإسلام في الدنيا، أو ليلقى الله تعالى شهيداً مغتسلاً بدم الشهادة...

وقد أكد أمير المؤمنين(عليه السلام) أهمية الإخلاص في النية، والصدق في المواطن، والثبات في المواقع... ومما قاله(عليه السلام) : "ولتصدق نياتكم في جهاد عدوكم...".

وفي تعبير له(عليه السلام) عن عظيم صبر شيعته في الحرب وترك الاستسلام يقول(عليه السلام) : "... وطائفة عضوا على أسيافهم، فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين".

وقال(عليه السلام) : "وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة، ولا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والصبر، والعلم بمواضع الحق، فامضوا لما تؤمرون به، وقفوا عندما تنهون عنه...".

أخي وعزيزي، إن النية الخالصة من كل شائبة أساس في العبادات فهذه لا تصح إلا بها، كذلك الجهاد الذي هو من العبادات الجليلة والعظيمة... وإخلاص النية فيه واجب ... فمن لم يأته الموت وهو في ساحة الوغى، جاءه وهو في ساحة النية البيضاء، الخالية من الأدران... وبذلك لو مات على فراشه، فقد مات شهيداً، ووقع ثوابه على ربه الرحيم، اللطيف الخبير، العليم بذات الصدور وما تخفي، فيحصل بالنية ما لم يحصل بالسيف.

يقول مولانا يا سيد المجاهدين علي أمير المؤمنين(عليه السلام) : "... اصبروا على البلاء، ولا تحركوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم، ولا تستعجلوا بما لم يعجله الله لكم، فإنه من مات منكم على فراشه، وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته، مات شهيداً، ووقع أجره على الله، واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام إصلاته لسيفه، فإن لكل شيء مدة وأجلاً".

ويصور(عليه السلام) قمة الصبر والرضا والتسليم لله تعالى عندما يضطر المرء ليعاند عواطفه وأحاسيسه بقتال أبيه أو أبنه أو أخيه ... وهذه الحالة هي من أهم الحالات التي يمتحن فيها الإنسان في نيته ودافع حركته ... فيقول(عليه السلام) : "ولقد كنا مع رسول الله (ص) ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا، يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا عدونا، ومرة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت وأنزل عليه النصر، حتى استقر

الإسلام ملقياً جرانه ومتبوئاً أوطانه، ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم، ما قام للدين عمود، ولا أخضر للإيمان عود" انتهى كلامه(عليه السلام).

وفي نصوص أخرى يظهر(عليه السلام) تذمره(عليه السلام) من الناكثين لعهودهم والكاذبين والخائفين من مواجهة العدو فهو لا يستطيع الإتكال عليهم أو الاعتماد على وعودهم... ولا يستطيع تهديد العدو بهم ... لأنهم قد يخذلونه في اللحظة الحاسمة...

يقول (عليه السلام) : "... أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم، ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم..".

ثم قال(عليه السلام) : "... أف لكم ! لقد لقيت منكم برحاً، يوماً أناديكم ويوماً أناجيكم، فلا أحرار صدق عند النداء، ولا إخوان ثقة عند النجاء".

ويقول(عليه السلام) : "أي دار بعد داركم تمنعون، ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب".

حرمة الفرار من الجهاد :

يجمع الناس على أن من يترك الدفاع عن نفسه وعرضه وماله ووطنه، هو خائن ذليل. والإسلام دين الله تعالى، والفطرة السليمة، لا يخرج عن المتعارف والمتسالم عليه، فيحرم على المسلم الهرب والفرار من الزحف والجهاد، ويجعل ذلك من الكبائر والآثام العظيمة التي تحتاج إلى توبة وإنابة...

وفي نهج البلاغة، العديد من الشواهد والموارد، التي تخاطب الجبناء والمتخاذلين والفارين من الواجب المقدس, في الدفاع عن الأرض والعرض، خاصة وأن فرارهم لا ينجيهم من الذل في الدنيا العاجلة، ولا من الهوان في الآخرة الآجلة.

يقول(عليه السلام) في خطبة له قبل المعركة : " ... واعلموا أنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله، فعاودوا الكر، واستحيوا من الفر، فإنه عار في الأعقاب ونار يوم الحساب...".

ويقول(عليه السلام) : فيمن ترك الجهاد، والعياذ بالله : "فمن تركه رغبة عنه، ألبسه الله ثوب الذل، وشملة البلاء، وديث بالصغار والقماءة، وضرب على قلبه بالإسهاب".

ويقول (عليه السلام) في حث أصحابه على القتال في سبيل الله، وترك الفرار :

"إن في الفرار موجدة الله، والذل اللازم، والعار الباقي، وإن الفار لغير مزيد في عمره، ولا محجور بيته وبين يومه...".

وفي نص، يسهب فيه(عليه السلام) في إظهار تأففه من المتخلفين عن إعداد العدة للقيام بواجب الدفاع المقدس والجهاد لرفع راية التوحيد ... يقول (عليه السلام) : "أف لكم، لقد سئمت عقابكم !أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً ؟ وبالذل من العز خلفا ؟ إذا دعوتكم إلى جهاد عودكم، دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة، تكادون ولا تكيدون، وتنتقض أطرافكم فلا تمتعضون لا ينام عنكم، وأنتم في غفلة ساهون، غلب والله المتخاذلون...".

وفي نص، أكثر ألماً وتذمراً وتقززاً من واقعهم المرير، وخوفهم وجبنهم وحججهم الواهية وأعذارهم الضعيفة ... حيث كانوا يعتذرون تارة من شدة

الحر... وطوراً من البرد ... يتصرفون وكأن الجهاد رحلة المترفين والعابثين.

يقول(عليه السلام) : "... فقبحاً لكم وترحاً، حيث صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويُعصى الله وترضون! فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم : هذه حمارة القيظ، أمهلنا يسبخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارة القر، أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فراراً من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله

من السيف أفر! يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة، والله، جرت ندماً، وأعقبت سدماً، قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً...".

ويتابع(عليه السلام) قائلاً : "فيا عجباً ! عجباً والله، يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقك".

ثم يحذر الأمير من خطورة التقاعس والتخاذل التي تورث خسارة الوطن والأرض واحتلال القرى والمدن. فيقول(عليه السلام) : "ألا ترون إلى أطرافكم قد انتقصت, وإلى أمصاركم قد افتتحت، وإلى ممالككم تزوى، وإلى بلادكم تغزى! انفروا رحمكم الله إلى قتال عدوكم، ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف وتبوءوا بالذل، ويكون نصيبكم الأخس، وإن أخا الحرب الأرق، ومن نام لم ينم عنه".

ويقول(عليه السلام) : "فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان".

ولا بد، وقبل الختام، من الإلفات إلى ملاحظات هامة جداً, وهي أن القائد العسكري والسياسي عليه أن يتحرك بمن يريد الجهاد من الناس، وأما من لا يريد فليترك لأنه سيثبط الهمم... قال(عليه السلام) : " فأنهد بمن أطاعك إلى من عصاك، واستغن بمن انقاد معك عمن تقاعس عنك، فإن المتكاره مغيبة خير من مشهده، وقعوده أغنى من نهوضه".

* * *

وجوب التصدي للفتنة لحفظ الإسلام:

الفتنة في المجتمع كالنار في الهشيم، لا يلبث أن يدرك أولها آخرها، وبدانتها نهايتها. فالصغير من النار كبير، والقليل منها كثير، والمستسخف به منها خطير... فإذا شبت نهبت، وإذا هبت أهلكت.

وهكذا الفتنة، بل لعلها أشهد من ذلك، فالفتنة أشد من القتل ... وأوجب الله تعالى التصدي لها، لأن عدم القضاء عليها، يقويها، لتقضي على الساكت عنها، فضلاً عن الراضي بها.

وأول ما تهدف إليه الفتنة النيل من الإسلام ودعائمه، أهل البيت(عليهم السلام) وأتباعهم، ولا ينفع الندم بعد ذلك.

أمير المؤمنين(عليه السلام) أشير عليه بأن لا يتبع طلحة والزبير، ولا يرصد لهما القتال، فبين مجيباً بأنه لا يخدع، قال: "والله لا أكون كالضبع : تنام على طول اللدم، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها، راصدها ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع، العاصي المريب أبداً، حتى يأتي علي يومي، فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي، مستأثراً علي، منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يوم الناس هذا".

والفرق كبير بيننا، وبين أهل الفتنة وأنصارها، والهمج الرعاع من أتباعها، والعبيد المنقادين لها، ... وإن تستروا بالصلوات والعبادات، لكن، قريباً يكشف زيفهم، وتفضح سرائرهم... ولا تنفع عندها شعارات الوحدة والمحبة والأخوة ... بعد أن لم يحترم ناموسها، ويقدس شأنها.

يقول مولانا الأمير(عليه السلام) في رسالة جوابية إلى معاوية : "أما بعد، فإنا كنا نحن وأنتم، على ما ذكرت من الإلفة والجماعة، ففرق بيننا وبينكم أمس، أما آمنا وكفرتم، واليوم أنا استقمنا وفتنتم، وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً...".

ويقول(عليه السلام) : قبل موته مذكراً الناس، واعظاً لهم: "غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلو مكاني، وقيام غيري مقامي".

لذلك وقف الأئمة من أهل البيت في وجه كل الفتن التي وقعت في عصرهم، وما أكثرها، ولم يسكتوا عن واحدة منها، وإن اختلفت الأساليب، وتعددت الطرق. فهم صمام الأمان لحفظ الإسلام، سلام الله عليهم أجمعين.

وفي خطبة له(عليه السلام) يذكر فيها أهل البيت(عليه السلام) يقول : "هم عيش العلم، وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل".

ويشكو(عليه السلام) ظلامته أمام بعض أصحابه الذين سألوه: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام، وأنتم أحق به؟ فكان مما قاله لهم : "حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه، وسد فوارهم من ينبوعه...".

وختم(عليه السلام) مستشهداً بقوله تعالى : ((فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون)).

وجوب قتال المفسدين :

أخي العزيز، يا محب علي (عليه السلام)، تعلمنا من سيرة مولانا أميرالمؤمنين(عليه السلام) ومن فترة توليه الخلافة، وإن كانت يسيرة جداً ... تعلمنا أن لا نفسح مجالاً لمثيري الفتنة في البلاد الإسلامية بل نقضي على أصولهم كما نقضي على فروعهم، ونستأصل أساسهم كما نستأصل مظاهرهم... حذراً من تمكنهم وشرهم، فيرتاح من مكرهم، مجتمع المسلمين، ويقوم الناب لرب العالمين.

وهذا في الواقع أمر الله تعالى، في استئصال المفسدين في الأرض، "وطاويط" الليل، المصطادين في الماء العكر، الطفيليين الذين لا يتكاثرون إلا في المستنقعات الآسنة، والأكوام النتنة... القتالين للناس بخططهم وشيطناتهم، فالتنة أشد من القتل، كما قال الله تعالى، ولعلها كذلك، لأنها قتل جماعي، أو قتل بلا حساب.

يقول(عليه السلام) في خطبته المشهورة بإسم القاصعة : "ألا وقد قطعتم قيد الإسلام، وعطلتم حدوده، وأمتُّم أحكامه، ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث، والفساد في الأرض، فأما الناكثون، فقد قاتلت، وأما القاسطون، فقد جاهدت، وأما المارقة، فقد دوخت، وأما شيطان الردهة فقد كفيته بصعقة سمعت لها وجبة قلبه، ورجة صدره، وبقيت بقية من أهل البغي ولئن أذن الله في الكرة عليهم، لأديلن منهم ...".

وكان(عليه السلام) قد أشار إلى نعمة الأمن الاجتماعي عند القضاء على المفسدين (وهي نعمة لا تقدر ولا تثمن)، مقابل القلق والخوف والفواجع التي تظهر مع ظهور المفتنين، فقال(عليه السلام) : "فإن الله سبحانه، قد امتن على جماعة هذه الأمة، فيما عقد بينهم، من حبل هذه الإلفة التي ينتقلون في ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل ثمن، وأجل من كل خطر.

"واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تعقلون من الإسلام إلا باسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه".

ويتابع(عليه السلام) قائلاً : "النار ولا العار ! كأنكم تريدون أن تكفنوا، الإسلام على وجهه انتهاكاً لحريمه، ونقضاً لميثاقه الذي وضعه الله لكم حرماً في أرضه، وأمناً بين خلقه، وإنكم إن لجأتم إلى غيره، حاربكم أهل الكفر، ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرون ولا أنصار ينصرونكم، إلا المقارعة بالسيف حتى يحكم الله بينكم".

"وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه، وأيامه ووقائعه، فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه، وتهاوناً ببطشه، ويأساً من بأسه، فإن الله سبحانه، لم يلعن القرن الماضين بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي، والحلماء لترك التناهي !" انتهى كلامه (عليه السلام)، والتحية والإكرام.

وقبل أن نختم، نتطرق إلى كلمة فصل له(عليه السلام) فيها من الحسم واليقين، ما يثبت القلوب عند الشدائد، في وجوب قتال الفتانين أو أهل الردة عن دين الله، والعياذ بالله تعالى من ذلك. فقد قال بعد إتمام استعداده لحرب أهل الشام : "ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، لم أر لي فيه، إلا القتال، أو الكفر بما جاء به محمد (ص)".

مدح المؤمنين الزاحفين لضرب الفتنة :

... في أكثر الأحيان لا يستطيع شخص واحد، بقرار أو بخطاب أن يئد الفتنة، ويقضي عليها ... بل لا بد من تكاتف جماعة المؤمنين، أو جماعة من المؤمنين، يقام الواجب بهم، وتحفظ بيضة الإسلام بقيامهم ونصرتهم.

... يقول الأمير سلام الله عليه مفتخراً بجنده وجيشه، معتزاً بتاريخهم وحاضرهم، ممن امتحنوا فثبتوا، يقول : "وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم، متسربلين سرابيل الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، وقد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصابها في أخيك وخالك وجدك وأهلك (وما هي من الظالمين ببعيد).

... وفي تحمس أنصاره والصالحين من أصحابه : ومدحتهم والافتخار بهم وتعظيم دورهم، يقول(عليه السلام) : أنتم الأنصار على الحق، والإخوان في الدين، والجنن يوم البأس، والبطانة دون الناس، بكم أضرب المدبر، وأرجو الطاعة المقبل، فأعينوني بمناصحة خلية من الغش، سليمة من الريب، فوالله إني لأولى الناس بالناس !" .

ويسترسل الأمير(عليه السلام) في مدح صحبه المخلصين، من جهة، وفي تحدي رأس الفتنة ورمزها معاوية، من جهة أخرى فيقول(عليه السلام) بقوة يقينه وتحديه لنصرة الحق الذي يمثل: "وأما طلبك إلى الشام، فإني لم أكن لأعطيك اليوم؟ ما منعتك أمس. وأما قولك : إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة، ومن أكله الباطل فإلى النار، وأما استواؤنا في الحرب والرجال، فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا، من أهل العراق على الآخرة...".

وفي رسالته إلى أهل الكوفة المخلصين المجاهدين المضحين، بعد فتح البصرة، يقول(عليه السلام) : "وجزاكم الله من أهل مصر عن أهل بيت نبيكم أحسن ما يجزي العاملين بطاعته، والشاكرين لنعمته، فقد سمعتم وأطعتم، ودعيتم فأجبتم".

هكذا كان أمير المؤمنين(عليه السلام) يخاطب جنده وأنصاره ... وكم نأسف وأشتاق عندما قتل في الحروب المفروضة عليه(عليه السلام) خيرة الصحابة والعباد والناسكين... وعظم أسفه عندما رأى بعضاً من البقية يتخاذل أو يجبن أو يبيع آخرته بدنيا غيره ... فقال(عليه السلام) : "أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة... أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن، فأحكموه، وهيجوا إلى الجهاد فولهوا وله اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً، وصفاً صفاً، بعض هلك، وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزون عن الموتى، مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخواني الذاهبون، فحق لنا أن نظمأ إليهم، وتعض الأيدي على فراقهم...".

خطر المنافقين على مجتمع المسلمين:

الحمد لله الذي علم السرائر، وخبر الضمائر، له الإحاطة بكل شيء، والغلبة لكل شيء، والقوة على كل شيء.

أخي الحبيب، السالك إلى الله تعالى، من أبرز فئات المجتمع التي يُخشى منها على الإسلام، وحذر منها المسلمون، النفاق والمنافقون ... هذه الفئة الخطرة التي تُبطن خلاف ما تظهر، وتخفي خلاف ما تعلن، تتجلبب بزي الصالحين وواقعها أشد من المشركين، وتتظاهر بمظهر أهل التقوى وعملها أخطر من عمل الكافرين.

لقد حذر الله تعالى من المنافقين في القرآن الكريم، وذكر صفاتهم، وأنزل سورة كاملة عنهم، وعشرات الآيات تناولتهم ... وما ذلك إلا تأكيد على خطرهم، وعلى خبث دورهم...

وأما الروايات عنهم ففاقت المئات ... وأما معاناة المسلمين منهم في التاريخ فتكاد لا تحصى، ولا يخلو منهم مصر ولا عصر، ولا أرض ولا زمن ... فهم جزء من المجتمع، ومثل الخبيث إبليس فيه.

ويكفي فيما نحن فيه، ما رواه مولانا الأمير، بعد التجربة المريرة عن سيد المرسلين محمد(ص) أنه قال: "وإني لا أخاف على أمتي، مؤمناً ولا مدركاً، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان، عالم اللسان، يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون".

أما صفات المنافقين، ولأهميتها، فنتحدث عنها بحول الله وقوته في موضع آخر.

ومن أهم السبل لمعالجة النفاق، والعياذ بالله، الإخلاص لله تعالى، والصدق مع النفس والناس، وصدق القول والفعل، والتصديق بما جاء به الأنبياء والمرسلون، والاقتداء بالسلف الصالح ... وكل هذا يأتي بعد عرض النفس على القرآن الكريم، لبرمجتها وفق تعاليمه ... ويأتي أيضاً بتحسين الخلق.

يقول الأمير(عليه السلام) في موعظة له حول فضل القرآن : "واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم فإن فيه شفاء، من أكبر الداء : وهو الكفر والنفاق، والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله".

أما في شأن تحسين الخلق، فمن الطرق المختصرة إليه، الصدق في اللسان الموافق لما في الجنان... يقول(عليه السلام) : "ثم إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها، واجعلوا اللسان واحداً، وليخزن الرجل لسانه، فإن هذا اللسنان جموح بصاحبه، والله ما أرى عبداً يتقي تقوى نفعه حتى يخزن لسانه، وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه...".

أما عاقبة المنافق في الدنيا فلا بد منها فضلاً عن الآخرة، يقول(عليه السلام) في موعظة له : "إن من عزائم الله في الذكر الحكيم، التي عليها يثيب ويعاقب، ولها يرضى ويسخط، أنه لا ينفع عبداً، وإن أجهد نفسه، وأخلص فعله، أن يخرج من الدنيا، لاقياً لابه بخصلة من هذه الخصال، لم يتب منها : أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يعر بأمر فعله غيره، أو يستنتج حاجة إلى الناس، بإظهار بدعة من دينه، أو يلقى الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين، اعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهة".

أخي، رأينا بحسب رأي الأمير(عليه السلام) فيما تقدم شدة خطر المنافقين على مجتمع المسلمين، والعلاجات المقترحة، والعواقب المترتبة ... أعاذنا الله وإياكم من كيدهم... وسنرى الآن علامات المنافقين وخصالهم.

علامات المنافقين :

بات من الواضح أن المنافقين أشد خطراً على مجتمع المسلمين من المشركين والكافرين، لأنهم يحاربون من الداخل ويحملون أسراره ويتظاهرون بالإسلام، بينما أولئك يحاربون من الخارج ويظهرون الكفر، فالحذر منهم واضح للجميع.

والسؤال الأهم، في هذا الخضم هو : هل للمنافقين علامات تميزهم عن غيرهم، ويعرفون بها؟ وما هي هذه العلامات؟

في الإجابة نقول : من أهم علامات المنافقين التلون بحسب الأشخاص والمناسبات، فيغيرون كلامهم وحركاتهم وابتساماتهم، بحسب الرياء الذي يرجى من ورائه رضى الآخرين، وإن كان في ذلك غضب الله تعالى.

ومن علاماتهم أنهم يتكلمون بالخير والنصيحة، وقد يستشهدون بالآيات والروايات ونصوص الحكماء، فتظن أن كلامهم دواء وشفاء ونقاء ... ثم ترى من أعمالهم ما يخالف ذلك، وما يجانب طريق الحق والهداية...

ومن علامات المنافقين أنك تجدهم في أهم المواقع والوقائع، كأنهم الحامي والمدافع، يعطون رأيهم دون مشورة ويتزلفون ويزينون ويستعينون بالكلام الجميل، والدمع الكثير... يتمادحون، ويتبادلون الثناء والتفخيم والألقاب، بلا حد ولا حساب، ثم تعجب من انتظارهم للحساب الذي يرجونه بلا عقاب.

ومن أهم علاماتهم، أنهم يحملون لكل سؤال جواباً، ولكل حدث حساباً ... وكل حق له عندهم باطل مهيأ، وكذب معبأ ... هم حزب الشيطان أعداء حزب الله حزب الرحمن.

وفي ملخص لكل ما تقدم ... وفي خلاصة لكل صفات وعلامات المنافقين، يتحدث أمير المؤمنين عنهم بإسهاب وعمق، يقول صلوات الله تعالى وسلامه عليه في شأن المنافقين.

"أوصيكم، عباد الله، بتقوى الله، وأحذركم أهل النفاق، فإنهم الضالون المضلون، والزالون، المزلون، يتلونون ألواناً، ويفتنون إفتناناً ويعمدونكم بكل عماد ويرصدونكم بكل مرصاد، قلوبهم دوية وصفاحهم نقية، يمشون الخفاء، ويدتون الضراء، وصفهم دواء، وقولهم شفاء، وفعلهم الداء العياء حسدة الرخاء، ومؤكدوا البلاء، ومقنطو الرجاء، لهم بكل طريق صريع، وإلى كل قلب شفيع، ولكل شجو دموع، يتقارضون الثناء، ويتراقبون الجزاء، إن سألوا ألحفوا وإن عذلوا كشفوا، وإن حكموا أسرفوا، قد أعدوا لكل حق باطلا، ولكل قائم مائلاً، ولكل حي قاتلاً، ولكل باب مفتاحاً، ولكل ليل مصباحاً، يتوصلون إلى الطمع باليأس، ليقيموا به أسواقهم، وينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشبهون ويصفون فيموهون، قد هونوا الطريق، وأضلعوا المضيق، فهم لمة الشيطان، وحمة النيران : أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون" انتهى كلامه(عليه السلام).

ومن العلامات الفارقة للمنافق أنه يكثر من الكلام من دون أن يتدبره ويفكر به بل ينطق بكل ما يراه مناسباً بحسب رأيه. يقول الأمير سلام الله تعالى عليه : "وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه، وأن كان شراً واراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ماذا له، وماذا عليه".

هذه يا أخي أهم علامات المنافقين، التي يعرفون بها، نجانا الله تعالى منها، ومن كيدهم، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

من أساليب أهل الفتن :

من مصلحة أهل الفتن في كل الأوقات، تأليب الناس على الخصم، ليأمنوا الحد الأدنى من إثارة علامات الاستفهام حوله، إضافة لإشاعة الفرقة والخلاف، وتحريك العواطف، والإيحاء بتهديد المصالح، فتقوم فئات من الناس، خاصة الأكثرية الصامتة أو الغافلة، تقوم ضد الخصوم المعترضين.

وهذا الأسلوب مستعمل من قديم الزمان، وفي فجر الإسلام، حيث تذكر النصوص، أن معاوية، كان يحاكي عواطف الناس في ضرورة حفظ شبابهم ورجالهم، وسحبهم من المعركة، والحفاظ على مجتمع العرب وأصوله كل ذلك ليس حباً بالقوم، بل زرعاً للفتنة في صفوفا العامة، وحتى تمنع الأم ابنها على موالاة علي(عليه السلام) ، والزوجة زوجها، والأخت أخاها.

كان علياً(عليه السلام) رد على هذه الإدعاءات والافتراءات بحسم وقوة، وأفهم الناس، أن القضية ليست قضية حياة أو موت، قرابة أو عاطفة ... بقدر ما هي مصلحة للإسلام، ونصر لدين الله عز وجل، وفوز بالرضى والجنة، فقال(عليه السلام) في رسالة جوابيه إلى معاوية الداهية في استدرار عطف الناس، وتحريك مشاعرهم...

قال(عليه السلام): "... وأما قولك : إن الحرب قد أكلت العرب، إلا حشاشات أنفس بقيت، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة، ومن أكله الباطل فإلى النار... وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة".

ومن بين أساليب الفتانين أيضاً، الحديث عن الوحدة والسلام والمحبة والأخوة !!! ... ومن نرى ونسمع مثل هذه الكلمات والمواقف، التي ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب والنقمة ... وكم نسمع اليوم في المحافل الدولية هذه الألفاظ.. والشعوب المستضعفة تقتل وتهجر وتسبى وتظلم... ولا يسمح لها بحظ قليل من الحياة العزيزة الكريمة ... بينما العناوين السليمة والإنسانية، تضج منها الآذان، والشعارات تضيق بها الصحف والجدران.

وينبغي علينا أن لا نحرص أو ننوه في غياهب هذه العناوين الزائفة، والشعارات الراجفة ... ونصم آذاننا عن بكاء الأطفال، وعويل الثكالى، وأنين الجرحى، وآهات المعذبين...

فالفرق واضح بين الإيمان والكفر، والاستقامة والضلالة، يقول الأمير(عليه السلام) في رسالة له لركن لركن الفتنة معاوية " ... أما بعد، فإنا كنا نحن وأنتم على ما ذكرت، من الإلفة والجماعة، ففرق بيننا وبينكم أمس، أنَّا أمنا وكفرتم، واليوم أنا استقمنا وفتنتم، وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً...".

ويقول(عليه السلام) في خطبة له بعد قتل طلحة والزبير: "بنا اهتديتم في الظلماء، وتسنمتم ذورة العلياء ... ما زلت أنتظر لكم عواقب الغدر، وأتوسّمكم بحلية المغتربين، حتى سترني عنكم جلباب الدين، وبصرنيكم صدق النية، أقمت لكم على سنن الحق في جواد المضلة، حيث تلتقون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميهون".

أخي : إن المراوغة والاحتيال المستعملة عند أهل الفتنة ... لا ينبغي بل لا يجوز أن تفت من عزيمتنا في محاربتها وإزهاقها ... يقول :(عليه السلام) "أيها الناس، فإني فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها، واشتد كلبها... إن الفتن إذا أقبلت، شبهت، وإذا أدبرت نبهت...".

ويقول (عليه السلام) في مورد آخر : " فنهضت في تلك الأحداث، حتى راح الباطل، وزهق، واطمأن الدين وتنهنه".

هذا قليل من مواقفه (عليه السلام) في شأن الفتنة، ولعلنا نوفق لتبيان المزيد منها، ولا قوة إلا بالله.

الموقف من رأس الفتنة :

أخي، نور عيني، من غير الجائز، ترك زعماء الفتنة، يسرحون ويمرحون، يخططون ويفسدون، دون عقاب. فأهل الفتنة والبغي، من أصحاب الجرائم الكبيرة والجليلة، الذين عظم خطرهم، وتشامخ بغيهم، وتجدر فسادهم، لا بد عن قلعهم، من أساسهم الذي أسسوا، وطريقهم الذي انتهجوا ... ولا بد من معاقبتهم، من قبل ولي أمر المسلمين، المؤتمن على دينهم ودنياهم... ولا بد من صدهم، ليعتبر المعتبرون، ويتعظ المتعظون، ويأمن المستضعفون... ولا تسول الأنفس لضعافها، في تعظيم الفتنة وامتطائها.

أما التساهل معهم فلعمري، لا تؤمن عواقبه، ولا يستكان إلى مستقبله، ولا تحفظ فيه النفوس.

ففي ذكر أصحاب الجمل، يقول الأمير أمير البيان، (عليه السلام) : "فقدموا على عاملي بها وخزان بيت مال المسلمين، وغيرهم من أهلها، فقتلوا طائفة صبراً، وطائفة غدراً، فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلاً واحداً، معتمدين لقتله، بلا جرم جره، لحل لي قتل ذلك الجيش كله، إذ حضروه فلم ينكروا، ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد، دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم ! ".

أخي العزيز: حتى يعي الناس خطورة ما يقوم به المنافقون ويساهموا في استئصالهم، لا بد من شن حرب إعلامية عليهم، إظهاراً لمساوتهم، وتبياناً لخطورتهم... وإلا فلن يعرف الناس ضرورة ردعهم، وردهم عن بغيهم بالعقاب والحساب. إذ يجب تجنيد المجتمع، كل المجتمع، للمساهمة في حرب أهل العدوان، والظلم والطغيان.

وفي ذكر السائرين نحو البصرة لقتاله، يقول الأمير(عليه السلام) في بيانه :

"فقدموا على عمالي، وخزان بيت المسلمين الذي في يدي، وعلى أهل مصر كلهم في طاعتي وعلى بيعتي، فشتتوا كلمتهم، وأفسدوا علي جماعتهم، ووثبوا على شيعتي، فقتلوا طائفة منهم غدراً، وطائفة عضو على أسيافهم، فضاربوا بها، حتى لقوا الله الصادقين".

وفي ضمن تشكيه(عليه السلام) من طلحة والزبير يقول : "اللهم إنهما قطعاني وظلماني، ونكثا بيعتي، وألبا الناس علي".

وفي إظهار الخطر على بلاد المسلمين يقول(عليه السلام) مستنفراً ومستفزاً

المسلمين: "ألا ترون إلى أطرافكم قد انتفضت، وإلى أمصاركم قد افتتحت، وإلى ممالككم تزوى، وإلى بلادكم تغزى!".

وفي خطورة معاوية يقول سلام الله عليه، في رسالة مفصلة له: "وأرديت جيلاً من الناس كثيراً، خدعته بغيك، وألقيتهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهم ونكصوا، على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على أحسابهم، إلا من فاء من أهل البصائر، فإنهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى الله من مؤازرتك إذ حملتهم على الصعب، وعدلت بهم عن القصد، فاتق الله يا معاوية في نفسك... فإن الدنيا منقطعة عنك والآخرة قريبة منك، والسلام".

بهذا الكلام القاطع، وبهذه الصراحة الواضحة، خاطب علي(عليه السلام) ، رمز الفتنة وشعارها معاوية... بل كان منه (عليه السلام) ما هو أصرح من ذلك، في رسالته لزياد بن أبيه عندما أراد معاوية أن يستدرجه ويستلحقه به. قال : "وقد عرفت أن معاوية، كتب إليك يستزل لبك... فاحذره، فإنما هو الشيطان...".

هذه بعض مواقفه (عليه السلام) من رأس النفاق والفتنة، نجانا الله من عدوانهم وكيدهم.

فضح الفتنة أمام الناس :

أخي أيها العزيز، الوضوح ودفع الشبهات والشجاعة، عناصر لا بد أن تتعاضد لوأد الفتنة قبل أن تشب، ... والفتنة أشد من القتل.

فلقد شاء الله تعالى لأنبيائه وأوليائه وأتباعهم، أن يتصدوا للفتن التي يصطنعها الأشرار والفجار، والطامعون والحساد، وضامروا السوء. والتصدي هذا، بحاجة إلى صبر وأناة، وشرح وتوضيح، وتصريح وتلميح، وإلى الاستعانة بالشواهد من الحاضر والتاريخ، وبيان الأمور المتشابهات، والوقوف في وجه الضلالات، وفضح رؤوس الفتنة ومعتقدهم، ونهجهم وأسرارهم، وكيدهم وأعمالهم.

وباختصار تجب تعرية أرباب الفتنة أمام الرأي العام، من خلال رسائل الإعلام، حتى لا يبقى أي إبهام، في مجتمع الأنام، ولئلا يسلب منهم السلام، ويسيطر أهل الهوى والهيام، والمدعون كذباً للإسلام.

يقول الأمير(عليه السلام) : "... واعملوا أنكم أن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به، حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنهم عيش العلم، وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم...".

فيا أخي العزيز : لا بد لي ولك أن نتعاون لفضح المتآمرون، المعشعشين في داخل مجتمعنا، ولا يحق لي ولا لك أن نتهرب من المسؤولية، لأن قمع المنكر ودحضه لا يكونان إلا بتأزرنا وتعاضدنا، وهذا واجب علينا كما أفتى الفقهاء، وأقر العملاء...

فأهل الفتنة يغرون الناس بالهوى، وطبيعة الناس ميالة إليه... فيترعرع الباطل وله حُماته، ويضعف الحق وقليل أنصاره، ويكثر الكذب عند أهل الفتنة، لتزيين معتقدهم وباطلهم، ويفخرون بذلك، وينسبونه إلى الحنكة والذكاء، والفطنة والدهاء، وهم للحق ناصبوا العداء، ويهشون برياء آذانهم صماء، وعيونهم عن الحق عمياء، وهم كل الداء، ولا من دواء. وأهل الحق والطاعة والمعروف في إعياء، وقلوبهم في منتهى النقاء، ونفوسهم معلقة بالسماء، وكلماتهم كلم الله، لا تكف عن النداء، ويبقى لهم أمل ورجاء، مهما بعد اللقاء، مع الأنصار والأحياء.

يقول الأمير(عليه السلام) عن الزمان الآتي : "وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان، ليس شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حق تلاوته، ولا أنفق، إذا حرف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر! فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته : فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد، لا يؤويهما مؤو. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان، في الناس، وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم! لأن الضلالة لا توافق الهدى، وإن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب، وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطه وزبره ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة، وسموا صدقهم على الله قربة، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة".

انتهى كلامه(عليه السلام) ... نسأل الله تعالى أن يهدينا بهداه، وأن يوفقنا لمكافحة الفتن، وتبصير الناس بها، لنتعاون جميعاً لردعها والقضاء عليها.

وأد الفتنة في مهدها :

كل مجتمع من مجتمعات التاريخ، يتعرض في بعض مراحل وجوده، للاهتزاز والاضطراب، لسبب داخلي أو خارجي. وأخطر الاهتزازات، وأفتك الاضطرابات، تلك التي تكون من الداخل، ومن أهل البيت الواحد، الذي يفترض، يعاضد بعضه بعضاً، ويساند جزءه الآخر...

وهذه الظاهرة الخطيرة، والحالة المريرة، اصطلح على تسميتها بالفتنة ... ومعناها لغة : الإحراق، والابتلاء والمحنة، على ما قبل.

هذه الفتنة يجب وأدها في مهدها، وخنقها في بدئها، لأنها لو كبرت وشابت، بطشت وهابت، ... فهي عدو داخلي، عارف بالأسرار مطلع على الأخبار، خبير بالأشخاص والمواقع، مميز بين القوي والضعيف، والغاوي والعفيف، ... يعرف المفاصل الخطيرة، والمواطن الجليلة... فالأسهل أن نوقف هذه الفتنة وهي صغيرة، يمكن السيطرة عليها، خير من أن تتجذر وتصبح كبيرة، تصعب الإحاطة بها... فهي غاوية باغية، مشؤومة ناعية، الخراب سبيلها، والدمار طريقها، تتغذى من القيل والقال، والدماء والنار...

والفتنة تبدأ خفية، وتظهر جلية ... يعلمك أنها صغيرة لا تضر، فإذا بها كبيرة تورث العلقم المر، ... تظن أنها انتهت من ذلك السلطان، فإذا بها حاضرة في كل آن... الأول من البغاة، يمهد الثاني، والثاني يسلم الثالث... وقليل من يسلم منها، ويصان من كيدها.

رجالها متنافسون، وأركانها متباعدون، يجتمعون عند المصالح الصغيرة، ويتهربون عند القضايا الكبيرة، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى،... يخيل إليك أنهم رجل واحد، وحقيقتهم رجال متباعدون، متكالبون، دنيئون، متلاعنون، متباغضون، هم أخطر على الدين من أعدائه، أنهم يفرقون بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وأرحامه وبنيه، وعشيرته التي تؤويه... وإذا استفحلت الفتنة فعلى الإسلام السلام، في بلاد الإسلام.

في نهج البلاغة المبارك، يحذر الأمير، عليه صلوات الخبير البصير، من الفتنة الدفينة، التي قد تظهر في أي وقت دون سابق حساب، فيقول(عليه السلام) : "ثم إنكم معشر العرب، أغراض بلايا قد اقتربت، فاتقوا سكرات النعمة، واحذروا بوائق النقمة، وتثبتوا في قتام العشوة واعوجاج الفتنة عند طلوع جنينها، وظهور كمينها، وانتصاب قطبها، ومدار رحاها، تبدأ في مدارج خفية، وتؤول إلى فظاعة جلية".

"شبابها كشباب الغلام، وآثارها كآثار السلام يتوارثها الظلمة بالعهود! أولهم قائد لأخرهم، وآخرهم مقتد بأولهم، يتنافسون في دنيا دنية، ويتكالبون على جيفة مريحة، وعن قليل يتبرأ التابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون

عند اللقاء، ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف، والقاصمة الزحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، وتضل رجال بعد سلامة، وتختلف الأهواء عند هجومها، وتلتبس آراء عند نجومها، من أشرف لها قصمته، ومن سعى فيها حطمته، يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة! قد اضطرب معقود الحبل، وعمي وجه الأمر، تغيض فيها الحكمة، وتنطق فيها الظلمة... يضيع في غبارها الوحدان، ويهلك في طريقها الركبان، ترد بمر القضاء، وتحلب عبيط الدماء، وتثلم منار الدين، وتنقض عقد اليقين، يهرب منها الأكياس، ويدبرها الأرجاس، مرعاد مبراق، كاشفة عن ساق، تقطع فيها الأرحام، ويفارق عليها الإسلام، بريها سقيم، وظاعنها مقيم".

إنتهى كلامه، عليه صلوات الرب الرحيم... وقد بين بمنتهى التوضيح، علامات الفتنة، وضرورة ردعها في مهدها... ونختم بقول له (عليه السلام) يدل على مقدار ثباته ويقينه عند البلاء والامتحان، يقول : "ما شككت في الحق مذ أريته! ثم يوجس موسى(عليه السلام) خيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال!".

الباب الرابع

السياسة الإسلامية في مواجهة البدع

إن الواجبات في عصرنا هذا، وفي كل عصر، إقامة شريعة الله الغراء، التي بعث الأنبياء لها حاملين، وجاهدوا دونها باذلين، وضحوا بكل شيء وهم بلواء الحق معتصمون.

هذا الغرض الإلهي لا يكون إلا بمنازلة البدعة والانحراف، ومناهضة الزيغ والردة. فكل شيء في القول أول الفعل، في المجتمع أو السياسة... خالف ما أنزل الله تعالى، هو انحراف وانجراف إلى الجاهلية والبغي... وإن نصر ذلك الحكام وكثير من الناس، من طالبي السلطة والشهرة. ذلك أن حلال محمد حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة... ولا تنفع في تغيير ذلك، شعارات الانفتاح والتعايش والسلام والحضارة... فالله تعالى أعلم بأسرار حكمه، ومصير العالمين، من المسلمين والمشركين... فالشعارات المختلفة تخضع لحكم الإسلام، والإسلام لا يخضع لأمر، ويعلو ولا يُعلى عليه ... وتبقى كلمة الله أبداً في العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، مهما اختلفت الشعارات، وتعددت التبريرات.

يقول الأمير (عليه السلام) مخاطباً عثمان : "فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله، إمام عادل، هدي وهدى، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة مجهولة، وإن السنن لنيرة، لها أعلام، وإن البدع لظاهرة، لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به، فأمات سنة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة ...".

وفي تبيان طلبه للحكم (عليه السلام) يقول : "... اللهم أنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، وتظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك...".

فيا أخي، عندما نريد أن نتحرك لنقيم واجب تعظيم شعائر الله تعالى، في إقامة الحكم، ومحاربة البدعة... لا بد لنا أن نميز بين القانون الحق من الباطل... وبين الشريعة المقننة، والقانون المشرع كذباً وبهتاناً، ولا بد من معرفة بدهاقين السياسة، وإلمام بأبالسة السلطة، وألاعيبهم ونفثهم ولمزهم وغمزهم...

كما لا بد من الإحاطة بألاعيب السياسة، والسياسيين اللاعبين اللاهين العابثين، المسيسين للدين... فنجاهدهم به جهاداً كبيراً، كان عند ربنا منظوراً ... فندين السياسة، وتقوم سياسة الدين والشرع الحنيف في أرض الله تعالى.

يقول الأمير (عليه السلام) : "... واعملوا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب، حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله...".

وحول الانحرافات الحاصلة في الأزمنة المتأخرة، يقول (عليه السلام) : "وإنه سيأتي عليك من بعدي زمان، ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك الزمان، سلعة، أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق منه إذا حرف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر! فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته: فالكتاب يومئذٍ وأهله في ذلك الزمان، في الناس، وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم !... فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب، وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه...".

فهلم يا أخي، إلى إقامة الدين، بعدما دخل فيه ما دخل، ودخل مرحلة الخطر...

يقول علي (عليه السلام) : "... فأمسكت يدي، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد(ص) ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع

أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وننهنه".

لزوم مبايعة ولي الأمر وإطاعته :

... إن من أهم مقومات النجاح والانتصار، لأمة ما، أو لشعب معين، لزوم طاعة القائد المفروض الطاعة، والذي اجتمعت الأمة تحت لوائه لفقهه وعلمه وورعه وعدالته وإخلاصه وتصديه لأمور المسلمين.

... أما الحساد والطامعون وأهل المصالح، فيبايعون إذا شمّوا مصلحة في ذلك، وينكثون إذا لم يصلوا إلى مآربهم، ولم تتحقق غاياتهم... ومن أهم سلوكياتهم : التودد رياء، والطاعة ظاهراً، والتحبب خدعة، والتبسم اصطناعاً ... فإذا ما ما سنحت الفرصة لتمرير مآربهم، انقضوا دون وعي ولا إدراك لعواقب الأمور، وأقحموا معهم البسطاء من الناس، والمغفلين، والهمج الرعاع... الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

هذه الفئة الضالة المضلة، صاحبة البدعة، لا بد من وضع حد لأمرها، وخطة لجبهها ولحمها، وتوقيفها عد حدها.

... يقول علي أمير المؤمنين (عليه السلام) في رسالة له إلى معاوية، رأس الفتنة آنذاك، هو وأصحاب الجمل، الذين اعترفوا بشرعية الخلفاء الثلاثة... لكنهم نكثوا بعهدهم مع أمير المؤمنين (عليه السلام) عند خلافته، على الرغم من إقرارهم بها بادي الأمر...

يقول (عليه السلام) : "إنه بايعني القوم الذي بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل...، وسموه إماماً، كان ذلك لله رضى، فإن خرج عن أمرهم خارج، بطعن أو بدعة، رده إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى" انتهى كلامه (عليه السلام) .

... لكن في بعض الحالات يأخذ الإعلام المعادي مداه في إظهار حرصه على مصلحة الناس، وكأنه يدافع عنهم دون الولي المفروض الطاعة. وهذا من فنون النفاق عند أهل الشقاق.

وليس بالضرورة حضور كل المسلمين للمبايعة، بل هذا مستحيل الوقوع... فيكتفى بأهل الخبرة والورع ومحل نظر الناس.

فعندما يذكر مولانا علي (عليه السلام) رسول الله (ص) يتطرق إلى من له أهلية الخلافة والإمارة والتصدي... فالمسؤولية جسيمة، وليس كل راغب بها قادراً عليها، ووجود الرغبة غير كافٍ، لتحصيل القدرة أو النجاح... يقول (عليه السلام) فيمن هو جدير بالخلافة والقيادة: "أيها الناس، إن أحق الناس بهذا الأمر، أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه، فإن شغب، شاغب استعتب، فإن أبى قوتل، ولعمري، لئن كان الإمامة لا تنعقد حتى يحضرها عامة الناس، فما إلى ذلك سبيل، ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها، ثم ليس للشاهد أن يرجع، ولا للغائب أن يختار، ألا وإني أقاتل رجلين: رجلاً ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه".

ومن صفات المتصدي للخلافة أيضاً، أن لا يستزيد بكثرة الناس حوله إيماناً، وبقلتهم شكاً، بل دينه ويقينه واحدٌ في شتى الحالات.

كما يقول الأمير (عليه السلام) في رسالته الجوابية لأخيه عقيل بن أبي طالب: "وأما ما سألت عنه من رأيي في القتال، فإن رأيي قتال المحلين حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة...".

هذا رأيه (عليه السلام) في المبايعة، وصفات ولي الأمر، ونهجه الحاسم في ضبط الأمور، واستتباب الأمن.

نزاهة الحاكم العادل :

عندما ننظر إلى التاريخ السياسي للأمم، وسيرة حكامها ووزرائها، نرى عند أكثرهم تحيزاً إلى القبيلة أو العشيرة أو الأقرباء... ولو كان ذلك على حساب مصلحة الشعوب وملايين البشر...

والسلوك السياسي للحكام، من الغابرين والحاضرين، من السالفين والقائمين... ترى فيه وقفات وهنات تشوه سلوكهم عندما ينحازون أو يتعصبون لقريب ما، فيسندون إليه بعض المناصب الهامة، ويطلقون يده في الأموال العامة، فينفق ويوزع ويأخذ ويعطي... وكأن المال ميراث أبيه...

وإذا استعرضنا حكام المسلمين مثلاً في زماننا هذا باستثناء الجمهورية الإسلامية لا ندري من نستثني ومن نتزه... فالكل يتعامل مع الكل، كأنه مخلد في الأرض، وكأن الأشياء والأعيان والأموال والثروات والخلق خلقت له، ينفق منها كيفما شاء، ويحث يشاء ... ومن حوله، من أخوة وأولاد عم وخال وقريب وابن عشيرة في طغيانهم يعمهون.

وما هذا خلق الحاكم المخلص كما نرى في توجه أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة، مكافحاً هذه الآفة في طريقة الحكم والحكام، رافضاً فكرة المحسوبية والأزلام، مستنكراً نهج التسلط للأعوان ... مقيماً حد الله على القريب والبعيد، وعلى الغريب والصديق، وشعاره في كل ذلك: "الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى أخذ الحق منه، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا لله أمره".

ومن أبرز المواقف المشهودة والفريدة والخالدة له (عليه السلام) في هذا المجال، عندما جاءه أخوه عقيل يطلب منه مالاً، لا حق له فيه، وكأنه مال بيت المسلمين، أو مال الناس... فماذا فعل الأمير عندها؟! .

لنستمع إليه، يتحدث بنفسه فيقول: "والله لقد رأيت عقيلاً، وقد أملق حتى استماحني من بُركم صاعاً، ورأيت صبيانه شعث الشعور، غبر الألوان، من فقرهم، كأنما سودت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكداً، وكرر علي القول مردداً، فأصغيت إليه سمعي، فظن أني أبيعه ديني، وأتبع قياده، مفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت به : ثكلتك الثواكل يا عقيل ! أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه ! أتئن من الأذى، ولا أئن من لظى؟!".

فانظر يا أخي ماذا فعل الأمير بأخيه عندما طلب منه قليلاً من مال المسلمين... على ما هي حالة عقيل من الفقر والعوز والحاجة... وعلى ما عُرف عن الأمير من رهافة الجس، والرحمة، والشفقة، وصلة الرحم، ومساعدة الفقير، وإرواء المحتاج، والإيثار على النفس.

فالحاكم والمسؤولون هو القدوة، وهو كملح الأرض... إذا فسد فمن ذا الذي يصلحه؟ بينما مهمته الأساسية، إصلاح الناس...

يقول (عليه السلام) في توبيخ أصحابه: "... وإني لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي... لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل، ولا تبطلون الباطل كإبطالكم الحق!".

ويبين (عليه السلام) في نصر آخر مدى حسمه وجديته في أخذ الأمور، أخذ قائد خبير، بصير في عواقب الأمور، حريص على مصلحة أتباعه ورعيته فيقول (عليه السلام) : "وليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم لله، وأنتم تريدونني لأنفسكم، أيها الناس، أعينوني على أنفسكم، وأيم الله، لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق، وإن كان كارهاً".

وفي نص آخر يقول (عليه السلام) : "... فإن أنتم لم تستقيموا لي على ذلك، لم يكن أحد أهون علي ممن أعوج منكم، ثم أعظم له العقوبة، ولا يجد عندي فيها رخصة...".

وفي نصرة الحق مهما كان مكلفاً يقول (عليه السلام) مشترطاً على من بايعه للطاعة: "... واعلموا أني إن أجبتكم، ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب...".

ويقول (عليه السلام) : "... وإني لمن قوم، لا تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيماء الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار... قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل...".

تواضع الحكام في حياتهم الخاصة :

الحياة الخاصة التي يعيشها الحكام والزعماء، أكثر الأمور استفزازاً لعامة الناس، وخاصة مستضعفيهم.

والحياة الخاصة هذه تختلف بحسب سلوك وخلق وأدب هذا المسؤول، كما تختلف بحسب مجونه وفسقه وانحرافه...

فبعض المسؤولين لا يقيمون وزناً لدين أو مبدأ أو عادة أو عرف بين الناس... وبعضهم الآخر يُظهر شيئاً ويبطن ما يخالف هذا الشيء... وبعضهم يتحين الفرص للوثوب على الحرام أو يُظهر رفاهية وترفاً مبالغاً فيهما...

وهناك فئة لها صلة بالدين والالتزام، أو تحترم مشاعر الناس ومتاعبهم، وتشعر ولو نسبياً مع فقرائهم ومعسريهم... ومع ذلك ربما تبالغ في أثاث منزلها أو طريقة عيشها، سعياً منها لمجاراة المجتمع، أو تقليد الزعماء، أو رغبة زوجة، أو غفلة بشر...

المهم أن الحاكم أو المسؤول ينبغي أن يكون متواضعاً، هذا ما نفهمه من نهج البلاغة... بل كلما عظمت مسؤوليته كلما زاد تواضعه ... بل إذا وصل إلى قمة المسؤولية، لا مناص له أن يقدر نفسه بأفقر الناس، في مجتمعه... وهذا غاية العدل والمسؤولية والتحسس والتيقظ وبلسمة جروح المستضعفين...

فلننظر إلى حياة مراجعنا، وكبار علمائنا المخلصين عبر التاريخ، إلى حياتهم الخاصة، إلى منازلهم، وأثاثهم، ومكاسبهم، وفرشهم، ونوعية طعامهم، فهم قدوتنا بعدما اقتدوا بالأمير (عليه السلام)...

ولا يعني هذا، كما قد يفهم البعض الزهد خطأ... لا يعني هذا إظهار الفقر والفاقة والعوز والحاجة... أو لبس الثياب الرثة، أو إهمال الظاهر، أو ترك النظافة، أو تنفير الناس... فهذه أمور منهي عنها، بل ورد التأكيد على التنظيم والترتيب والتنميق والتنظيف والتجمل وإظهار النعمة، كل ذلك من غير إسراف ولا تبذير، ولا صرف في غير محله أو نفقة لا لزوم لها...

يقول أمير المؤمنين وخليفة المسلمين وصاحب أعلى منصب في دولة الموحدين، يقول لعامله ونائبه على البصرة: "ألا وإن لكل مأموم إماماً، يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه... فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً (أي ثوباً)، ولا حزت من أرضها شبراً... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع...".

"أأقنع من نفسي بأن يقال : هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة، همها علفها...".

هذا رأي الأمير (عليه السلام) في الحاكم والمسؤول... فهل سمعنا أو فهمنا؟!.

هل سمعت عنه (عليه السلام) وهو الرجل الأول على رأس السلطة في الدولة الإسلامية، وتحت لوائه ملايين البشر، ومئات الآلاف من الأميال، والألوف المؤلفة من الجنود رهن إشارته... هل سمعت عنه أنه يرفع كنزته بعدما فتقت... يكرر ذلك لمرات عديدة؟!.

يقول (عليه السلام) : "والله لقد رفعت مدرعتي هذه، حتى أستحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل : "ألا تنبذها عنك؟ فقلت : أغرب عني، فعند الصباح يحمد القوى السرى".

وعندما قال له عاصم بن زياد الحارثي : يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك! ... وكأن عاصماً يريد التمثل به... فقال (عليه السلام) في كلام يجب أن يُعلق في صدر كل قاعة من المجالس النيابية والوزارية ومجالس الشورى في العالم، قال (عليه السلام) : "... إني لست كأنت، إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيغ بالفقير فقره".

وفي تواضع نومه يقول(عليه السلام) : "والله لأن أبيت على حسك السعدان أو أجر في الأغلال مصفداً، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة، ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قُفُولُها، ويطول في الثرى حلولها؟!.

الإمام قدوة في حرب المفسدين :

الإمام العادل، قدوة في كل شيء : في شجاعته وجهاده وجرأته... كما في تقواه وخشوعه وعدله... فهو المثل الأعلى بين الناس... وهو مثل النبي في أمته، والمثل للمجتمع، كما كان رسول الله(ص) ... جريئاً شجاعاً مقداماً، لا يُداهن ولا يهاون، لا يجبن ولا يساوم، الأمين على الأمة ومستقبلها، على الأجيال ودينها...

وإذا كان الإمام كذلك، تبعته الأمة مجيشة لنصرته، ومجيشة كل القوى وكل القوة المتوفرة والمتاحة... وتلتف عندها الجماهير حوله، فيشتد ساعد الحق، ويزوى وهم الباطل إلى غير رجعة.

يقول الأمير (عليه السلام) في خطبة له : "وأيم الله، لقد كنت من ساقتها، حتى تولت بحذافيرها، واستوسقت في قيادها، ما ضعفت، ولا جبنت، ولا خنت، ولا وهنت، وأيم الله، لأبقرن الباطل، حتى أخرج الحق من خاصرته!".

وفي دوره وتاريخه وجهاده ومواقفه، يشير(عليه السلام) إلى ثبات جنانه، وقوة قلبه، ورباطة جاشه، وهدوء نفسه، وعلو همته، وقوة شكيمته، حتى وأنت تقرأ النص تشعر بحماس يسرى في جسدك، ويسبح في أطرافك، ويمحر في شرايينك، فيقف شعر بدنك مع كلامه، سلام الله تعالى عليه.

يقول (عليه السلام) ذاكراً فضائله ومعدداً لها، بعد وقعة النهروان : "فقمت بالأمر حين فشلوا، وتطلعت حيت تقبعوا، ونطقت حيت تعتعوا ومضيت بنور الله حين وقفوا، وكنت أخفضهم صوتاً، وأعلاهم فوتاً، فطرت بعنانها، واستبددت برهانها، كالجبل لا تحركه القواصف، ولا تزيله العواصف، لم يكن لأحد في مهمز، ولا لقائل مغمز، الذليل عندي عزيزي حتى أخل الحق له، والقوي عندي ضعيف، حتى آخذ الحق منه، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا لله أمره".

وفي موقف آخر له (عليه السلام) يتكلم ويعبر بتعابير، حتى تخال نفسك كأنك على شاشة حية مصورة، ترى المشاهد بوضوح... أو كأنك نقلت إلى ساحة المعركة أو زمان آخر، غير الزمان الذي نحن فيه، لتشهد وتشاهد معركة، تطيح بها الرؤوس بعد استئصالها. يقول : سلام الله تعالى عليه : "فأما أنا، فوالله، دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية تطير فيه فراش الهام، وتطيح السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء".

وهذا الكلام له (عليه السلام) في استنفار الناس لقتال أهل الشام. وفي إظهار شجاعته المميزة (عليه السلام) ، يبين فضل نفسه، في مقابل جو الفتنة لبني أمية ... يقول (عليه السلام) "أيها الناس فإني فقأت عين الفتنة ولم يكن ليتجترىء عليها أحد غيري بعد أن ماج غيهبها، واشتد كَلَبُها".

ولا يتنازل (عليه السلام) ولا يجبن ولا يفسد نفسه بالسكوت والتنازل والحرص على المناخ الزائل، واللذة العابرة الحائلة بينه وبين الجنة والرضوان. يقول (عليه السلام) في توبيخ بعض أصحابه: "وإني لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم ولكن لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي".

وهذا ما يجب أن يكون عليه الإمام القائد، في موقفه الرائد ...

ضبط النفس من صفات الحاكم :

... إن كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمالك الأشتر لمَّا ولاه على مصر، يعتبر بحق من أهم الوثائق التاريخية الجامعية لمبادئ وأسس الاجتماع والسياسية والإدارة، قياساً مع الفترة الزمنية التي صدر فيها، والأجواء السياسية

والاجتماعية المحيطة آنذاك.

... لذا وقف الباحثون من عرب وعجم، قديماً وحديثاً.... ونقف نحن اليوم أمام هذا الكنز الفريد، والأثر اليتيم في شموله وبابه .... نلتقي آثاره، ونمحص أسراره، ونغوص في أعماقه... في محاولة معتبرة وجادة لإنقاذ الإنسانية، ونجاة البشرية، من جهلها وظلم الظالمين.

... في البداية يوصيه (عليه السلام) بأوامر الله وزواجره... في الالتزام بالطاعات والمستحبات.. واجتناب المحرمات، حيث السعادة البشرية الحقيقية، التي تورث نصر الله سبحانه، والعزة الإلهية... وعندها تستقيم الأمور الدنيوية والأخروية، وتعمر البلاد، ويأمن العباد.

... يقول مولانا الأمير (عليه السلام) في كتابه : "هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه، حيث ولاه مصر، جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها :

... " أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه : من فرائضه وسننه، التي لا يسعد أحد إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنه، جل اسمه، قد تكفل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه".

... "وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات، ويزعها عند الجمحات، فإن النفس أمارة بالسوء، إلا ما رحم الله".

... وهنا يلتفت (عليه السلام) إلى الموجه إليه هذا الكتاب، اللفتات الأخلاقية في خصوص التقوى، وهي الأصل لكل فضيلة وكرامة، والصبر، حيث لا ترجى الأمور إلا به، والعفة، وهي درجة علاية من درجات الصابرين... ومن لم تتحقق هذه المزايا، فهو بعيد كل البعد عن الاستصلاح وإصلاح المجتمع بالأمن والتعليم والخدمات، وعن عمارة البلاد بالزراعة والصناعة والتجارة والمشاريع العامة...

ثم يعقب(عليه السلام) بتوجيه الوالي الطالب للعدل والقسط، فيرعبه بأن الناس تنظر إليه وهو في هذا الموقع، تماماً كنظرته هو للحكام قبله، ويقولون فيه، ما كان يقوله في الآخرين من الولاة والحكام والأمراء السابقين... ولا يبقى بين الناس إلا الذكر الجميل، للدلالة على أن صاحبه من الصالحين... فتلك الذخيرة الباقية التي ينتفع بها في الآخرة وعقبى الدار، عند اللقيا مع محمد وآله الأطهار... وأن الخطورة تكمن فيما يحدثنا به التاريخ، من أن أكثير الملوك والسلاطين وغالبيتهم، من الأشرار والفجار، والعتاة والطغاة، إلا الأخبار وهم أقل من القليل... والكل ذاهبون، فقط ما يبقى عدلك وسيرتك، تبقى على ألسن العباد... ولا يكون هذا إلا بالسيطرة على الهوى وشروره، وكن بخيلاً مع نفسك في منعها عن أخذ الحرام، فحبك لنفسك ليس بإعطائها ما تحب، بل يكون في أحيان كثيرة، في حملها على ما لا ترضى أو على ما تكره، ترويضاً لها، قربة إلى الله تعالى... ولن تكون حاكماً عادلاً بغير ذلك ... وكن يقظاً دائماً مع نفسك فيما أحبت أو كرهت... وهذا هو الإنصاف.

يقول الأمير (عليه السلام) لحبيبه المخلص مالك : "ثم أعلم يا مالك، أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت فيها عليها دول قبلك، من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فأملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها، فيما أحبت أو كرهت".

الرأفة والرحمة من صفات الحاكم العادل :

في مقطع من كتاب الأمير(عليه السلام) إلى الأشتر، يتناول أموراً شتى في الرحمة والرأفة والتواضع والصفح والعفو والتفكر... وصفات أخرى يحتاجها الحاكم لثباته ونجاحه.

وكم نرى حكامنا بعيدين عن هذه الصفات، وكم منهم ما إن يستلموا الحكم حتى يتغربوا عن هذه المكارم وأهلها، ويخطوا خطى فرعون وحزبه ونظائره في التسلط والتعجرف والتكبر والغرور، إذ أن أكثرهم لا يسودون إلا بالجيوش والجنود، وكثرة السجون، والإرهاب والتعذيب... ولعلك لا تجد واحداً منهم ينهج نهج الصالحين في العفو والصفح والحب لمواطنيه، حتى باتت المسلمين على ما هي عليه من الضعف وتكالب الأمم عليهم.

فهل هذه كانت حالنا لو كان الحاكم في البلد الإسلامي يتعامل مع رعيته على أنهم أصدقاء وأحباء وأقرباء... فيكون عوناً لهم، ويكونوا عوناً له، يسند بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص.

ماذا لو كان الحاكم كما وصف الله تعالى نبيه في القرآن الكريم حيث قال : (عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم).

أخي، كيف لا يسود الحاكم المشعر لقلبه بالرحمة للرعية والمحبة واللطف، فلا يستغل قوته وسلطته كالبهائم فيخطف حقهم، ويهدد وجودهم، ويقلق راحتهم حتى لو أخطأوا، فهم بشر يخطئون، ونحن بشر نخطئ، ونطلب العفو من ربنا وخالقنا، وهم يطلبون العفو منا ... فلنعطهم كما نحن أن نُعطى، ولنتخلق بأخلاق الله تعالى وهو القائل: (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً).

إننا جميعاً في قبضة الله تعالى، متساوون في العبودية والفاقة إلى رحمته تعالى، ونحن له وإليه راجعون يوماً ما، لا ريب في ذلك، فلا ننس أن ظلم الناس كأنه حرب على الله، نعوذ بالله تعالى، ومن يقدر على حربه ومبارزته؟! بل هو خروج عن الدين، فالحكم والسلطة بلاء من الله، ولا غنى عن العفو عن الناس كما لا غنى عن عفو الله عنا، قال تعالى : "((وأن تعفوا أقرب للتقوى)).

فاجعل يا أخي سياستك الأساسية أن تعفو، وأن لا تفتخر وتتبجح بعقوبة، ولا تغتر بمنصب الرئاسة والإمارة فتقول : أنا الأمير وأوامري مطاعة... أو أنا الآمر الناهي وعليكم السمع والطاعة... فتأثير ذلك على النفس فتاك قتال، لا تحمد عقباه... لا على النفس ولا على القلب والدين والآخرة ... بل ولا على الدنيا أيضاً، لأن مثل هذه التصرفات مؤدية إلى تغير الأحوال والسلطان.

ثم عليك أن تجتنب ما يشعر به أهل الدنيا ممن هم في موقعك، من العظمة والكبرياء والخيلاء والعجب ... وإلا لما اختلفت عنهم بشيء... وانظر إلى من لا تنبغي العظمة إلا له تبارك وتعالى وإلى قدرته وقوته وسلطانه ... فاخجل منه تعالى واخجل من نفسك، وعد إلى سليم فطرتك، ليعود إليك ما انزوى من عقلك، وما فقدت من حكمتك... وإن لم تفعل وبقيت مصراً على مباراة الله في سموه، لكن فتنة في نفسك وفساد كبير، فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل محتال.

يقول الأمير(عليه السلام) للأشتر رضوان الله ورحمته عليه : "ثم إعلم يا مالك، إني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك، من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيه، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فأملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت، وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان :

" إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك! وقد استكفاك أمرهم، وبتلاك بهم.

ولا تنصبن نفسك لحرب الله، فإنه لا يد لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته، ولا تندمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة ولا تقولن : إني مؤمر آمر فأطاع، فإن ذلك إدغال في القلب، ومنهكة للدين، وتقرب من الغير، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من غربك، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك!.

"إياك ومساماة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال".

التملق للحكام :

من الظواهر المعروفة، في الحياة السياسية، في هذا العصر، وفي العصور السالفة... امتداح الحكام والرؤساء، والقادة والوزراء، والملوك والسلاطين، والزعماء العسكريين. التماساً لعطفهم، وحرصاً على التقرب إليهم، وتزلفاً لساحتهم ... والأمثلة على ذلك، فوق العد والحصر... وتكفي نظرة عابرة لحياة سلاطين بني أمية وبني العباس في الماضي...وحكام بلاد الحجاز في عصرنا... وغيرهم حتى تُربك مقدار التخضع والتزلف والتسكع والتذلل، الذي يُبديه الكثيرون من أصحاب المناصب العليا، والمقامات الرفيعة، فضلاً عن عامة الناس ومستضعفيهم.

ونقول متأسفين إن هذه الظاهرة انتقلت إلى مؤسسات إسلامية، وجمعيات دينية، كان يفترض لها أن تعلم الناس العزة، لا أن ترميهم في متاهات الذلة والتمسكن. كما نتأسف أيضاً لانتقال هذه الظاهرة إلى علماء وفضلاء... ينتظر منهم تنزيه ساحتهم ونفوسهم عن عادات الجبابرة والمتكبرين...

أوليس الرسول (ص) أمر برمي التراب في وجوه المداحين ؟!. ألم يرد بأن من مدحك فقد ذبحك؟!.

ألم يرد بأن المدح قد يؤدي إلى التكبر والتجبر والعجب والفتنة؟!.

ثم ألم يرد بأن كثيراً من المدح تملق، وبعضه استهزاء؟!.

فنعوذ بالله من سبيل المدح الشيطانية، ونعيذ قادتنا المخلصين، وعلماءنا الربانيين، من شرك الشيطان الرجيم، على لسان المداحين. وسلام الله تعالى على مولانا أمير المؤمنين، القائد الرائد والبصير والحكيم، والخبير في شؤون الحكم والسياسة، والضليع في أمور الدولة والولاة... الناظر إلى عواقب الأمور، ... سلام الله تعالى عليه، عندما سمع رجلاً من أصحابه يثني عليه، ويبالغ في ذلك، كعادة المتملقين، فرد عليه، (عليه السلام) في كلام، من جواهر الكلم، وهو أنفع لخبراء السياسة والاجتماع وعلم النفس من غيرهم وهو هدية لمن بقيت عنده ذرة من شهامة وكرامة وإنسانية من الحكام والزعماء والمسؤولين والسياسيين وأمثالهم... لو تأملوه وتدبروه وسمعوه ووعوه...

قال (عليه السلام) : "إن من حق من عظم جلال الله سبحانه في نفسه، وجل موضعه من قلبه، أن يصغر عنده، لعظم ذلك، كل ما سواه، ... وإن من أسخف حالات الولاة، عند صالح الناس، أن يُظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر، وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم، أني أحب الإطراء، واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه، عند تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء، وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تثنوا علي بجميل ثناء، لإخراجي نفسي إلى الله سبحانه، وإليكم من التقية، في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لا بد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي، بفوق أن أخطىء، ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي، ما

هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم، عبيد مملكون لرب لا رب غيره، يملك منا، ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه، إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى".

وفي حادثة أخرى تدل على تواضعه وبعده عن التعظيم والتفخيم، يروى

أنه(عليه السلام) التقى عند مسيره إلى الشام، ببعض زعماء الفلاحين من منطقة الأنبار في العراق، الذين ترجلوا وسعوا إليه بسرعة على هيئة الخضوع، فقال (عليه السلام) : "ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا : خلق منا نعظم به أمراءنا، فقال : والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم! وإنكم لتشقون على أنفسكم في دنياكم، وتشقون به في آخرتكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب وأربح الدعة معها الأمان من النار!".

فيا أيها الحكام الزعماء، ويا أيها المسؤولون الصغار، الطامحون إلى ما هو أعظم، المقلدون لسير الجبابرة... هل في كلام الأمير لكم موعظة؟! ((ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)).

فساد الحكام :

من الملاحظات الأساسية في العمل السياسي والاجتماعي عبر التاريخ، استغلال المسؤولين والولاة لمناصبهم، فيستفيدون مما هم فيه، لزيادة أموالهم وأملاكهم واعتداءاتهم على الناس... ويطلقون العنان لأقاربهم والمحسوبين عليهم لفعل ما تشتهي أنفسهم... فتفوح منهم رائحة الصفقات المالية والمادية وغيرها من الموبقات... والأمثلة على ذلك من التاريخ القديم، ومن الواقع المعاش، أكثر من أن تحصى، وتكفينا نظرة عابرة لتاريخ الحاكمين في بلادنا في السنوات الأخيرة لنرى عشرات الأمثلة، في فساد معظم الولاة أو عدم استحقاقهم للمنصب الذي هم فيه، اللهم إلا القرابة أو الصداقة أو الفائدة أو المنفعة المتبادلة.

ومنطق الإسلام يرفض ذلك، فالمسؤول مسؤول بجدارته وعلمه ونزاهته وكفاءته، والمنصب في الإسلام مسؤولية وتكليف وليس انحرافاً وتشريفاً... ومن لم يجد في نفسه الكفاءة عليه أن يعتذر وينسحب قبل أن يُدان في الدنيا قبل الآخرة، وقبل أن يعزله الحاكم الشرعي وولي أمر المسلمين العادل الذي لا يُهادن ولا يراوغ... فالمسؤولية مسؤولية الدم والعرض والمال والأمة والمستقبل ... والوقوف بقوة أمام الانحراف والنفعية والاستغلال...

والمسؤولية الحق، إرث العلماء والحكماء والشهداء، وإرث الدم والعرق والسهر والخوف والتشرد ... وهل يستطيع السفهاء والفجار هذا؟! أم هل يفهمون معنى للصلاح والخير؟! وكم منهم من لم يدخل إلى الإسلام المحمدي الأصيل إلا بعد أن اشتد عوده وقويت شوكته بمشيئة الله تعالى، جل جلاله، وعز شأنه.

وهل يصلح المنحرفون ليقودوا المسيرة الإسلامية؟!. كلا وألف كلا.

يقول أمير البيان، علي (عليه السلام) لأهل مصر، متأسفاً على مصير الأمة، وعلى من تسلق وخان وتبوأ أمرها، يقول (عليه السلام): " ولكنني آسى، أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام وجُلد حداً في الإسلام، وإن منهم من لم يسلم، حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ فلولا ذلك، ما أكثرت تأليبكم وتأنيبكم، وجمعكم وتحريضكم...".

ويقول (عليه السلام) فاضحاً انحراف معاوية عن شرع الله وسنة نبيه وعرف العامة...يقول : "كيف أنت صانع إذا تكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا، قد تبهجت بزينتها، وخدعت بلذتها، دعتك فأجبتها، وقادتك فاتبعتها، وأمرتك فأطعتها، وإنه يوشك أن يقفك واقف، على ما لا ينجيك منه مجن، فأقعس عن هذا الأمر، وخذ أهبة الحساب، وشمِّر لما قد نزل بك، ولا تمكن الغواة من سمعك، وإلا تفعل أعلمك ما أغفلت من نفسك، فإنك مترف أخذ الشيطان منك مأخذه، وبلغ فيك أمله، وجرى منك مجرى الروح

والدم، ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية، وولاة أمر الأمة؟ بغير قدم سابق ولا شرف باسق، ونعوذ بالله من لزوم سابق الشقاء".

"وأحذرك أن تكون متمادياً في غزة الأمنية".

أخي، ما أصعب، وما أمر، أن يكون المسؤول طامعاً بخيلاً، فارغ العين، صاحب شهوة، ورفيق نزوة، لا يفقه تجربة، ولا حظ له في العلم والفهم... فكم سيكون وباله على الناس والأمة ...

يقول الأمير سلام الله عليه : "وقد علمتم، أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام، وإمام المسلمين، البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجاني فيقطعهم بجفائه... ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة، فيهلك الأمة".

ويقول (عليه السلام) في شأنه عمرو بن العاص : "لقد قال باطلاً، ونطق آثماً، ... إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويسأل فيبخل، ويسأل فيلحف، ويخون العهد ... فإذا كان عند الحرب، فأي زاجر وآمر هو. ما لم تأخذ السيوف مآخذها...".

محاسبة الولاة عند انحرافهم :

إذا أخطأ أمرؤ فهناك من يحاسبه ... أما إذا أخطأ المسؤول فمن يحاسبه ؟!.

وإذا أخطأ المواطن فهناك من يعاقبه... لكن من يعاقب الوالي والحاكم والزعيم؟!.

وإذا أخطأ المواطن فهناك من يعاقبه ... لكن من يعاقب الوالي والحاكم والزعيم؟!.

المواطن العادي سلطته محدودة جداً، وإمكانياته لا تقاس بما يتسلط عليه الحكام من أموال وعقارات وشركات وسيارات وعلاقات تكرس لخدمة الشخص والعائلة والحاشية والأزلام والأتباع.

الناس العاديون نادراً ما يبغون ويطغون... لأنهم سيدفعون الثمن عاجلاً ... أما الحكام، أكثر الحكام أكثر الحكام فهم رمز البغي والعدوان ونموذج الظلم والطغيان ... وهذا ما كان يشغل بال أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما يرى من بعض الولاة تجبراً واستغلالاً لما هم فيه ... من إسراف إلى بطش إلى تملك بعدوان إلى منع للحق ...

يقول (عليه السلام) لزياد بن أبيه : "فدع الإسراف مقتصداً، واذكر في اليوم غداً، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك ... أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين، وأنت عنده من المتكبرين! وتطمع، وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف والأرملة، أن يوجب لك ثواب المتصدقين؟! وإنما المرء مجزي بما أسلف، وقادم على ما قدم، والسلام".

وكان (عليه السلام) يتحقق من تصرفات ولاة الأمر، وأملاكهم وأموالهم، فإذا وجد انحرافاً أو شبهة، لم يسكت على ذلك، للمقام الخطير الذي يتبوأه الحاكم المسؤول ... فيعظه ويذكره بآخرته وبالحساب ... ويستفزه باستشعاره لضميره، واستحضاره لورعه ... ثم يبالغ (عليه السلام) في التهديد مبالغة كان يستعمل سيفه الذي ما ضرب به أحداً إلا دخل النار، ولا يتهاون في هذا الأمر، في جب الله تعالى، حتى لو كان الفاعل ذلك الحسن والحسين...

يقول (عليه السلام) إلى بعض عماله : "أما بعد، فقد بلغني عنك أمر، إن كنت فعلته، فقد أسخطت ربك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك ... بلغني أنك جردت الأرض، فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك، وأعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس".

ويقول (عليه السلام) فيما نحن فيه، في مورد آخر : "... فسبحان الله! أما تؤمن بالمعاد؟ أو ما تخاف نقاش الحساب! أيها المعدود، كان عندنا من أولي الألباب، كيف تسيغ شراباً وطعاماً، وأنت تعلم أنك تأكل حراماً، وتشرب حراماً، وتبتاع الإماء، وتنكح النساء من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين، الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال، وأحرز بهم هذه البلاد ! فاتق الله،

وأردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل، ثم أمكنني الله منك، لأعذرن إلى الله فيك، أو لأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار! ووالله لو أن الحسن والحسين، فعلا مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هوادة ولا ظفرا مني بإرادة حتى أخذ الحق منهما، وأزيح الباطل عن مظلمتهما... فكأنك قد بلغت المدى ودفنت تحت الثرى، وعُرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي الظالم فيه بالحسرة، ويتمنى المضيع فيه الرجعة، ولات حين مناص".

وفي رسالة إلى أحد عماله في بلاد العجم، حيث لم يعادل في تقسيم أموال المسلمين، يقول (عليه السلام) : "بلغني غنك أمر، إن كنت فعلته، فقد أسخطت إلهك، وعصيت إمامك : أنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وحيوتهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من أعراب قومك، فوالذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لئن كان كان ذلك حقاً لتجدن لك علي هواناً، ولتخفن عندي ميزاناً، فلا تشتهدن بحق ربك، ولا تصلح دنياك بمحق دينك، فتكون من الأخسرين أعمالاً...".

وفي رسالته (عليه السلام) إلى المنذر بن الجارود العبدي، وقد خان في بعض ما ولاَّه من أعماله، كتب (عليه السلام) قائلاً : "أما بعد، فإن صلاح أبيك غرّني منك، وظننت أن تتبع هديه، وتسلك سبيله، فإذا أنت فيما رقي إلي عنك لا تدع لهواك انقياداً، ولا تبقي لآخرتك عتاداً، تعمر دنياك بخراب آخرتك، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك، ولئن كان ما بلغني عنك حقاً، لجمل أهلك، وشسع نعلك خير منك، ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يُسد به ثغر، أو ينفذ به أمر، أو يعلى له قدر، أن يشرك في أمانة، أو يؤمن على جباية، فاقبل إلي حين يصل إليك كتابي هذا، إن شاء الله".

السياسة المالية للحكام وسياسة الرشوة :

... الرشوة ، مظهر نافر من مظاهر الانحراف في الفرد والجماعة فالفرد الذي يرضى بالرشوة أو يسكت عليها، أو يشجعها ... ساقط في نفسه قبل غيره ... وفي داخله في ظاهره.

... والدولة التي تسود الرشوة عند حكامها وفي معاملاتها ... دولة هشة ضعيفة، يتآكلها الوهن والضعف من داخلها، تنتظر سقوطها واضمحلالها، دون أن تجد من يدافع عنها.

والشخص المسؤول، يتعرض للإغراء أكثر من غيره، وللسقوط عنوة عن الناس الآخرين... وكلما كبرت المسؤولية وعظمت، كلما زيد في ابتلاء المرء وشدة الضغط عليه, ليسقط أمام الهدايا والعطايا، والإغراء والرشوة.

أمير المؤمنين (عليه السلام) وفي حادثة جرت معه، يعطي درساً عملياً زائداً في كيفية رفض العطية التي يريد صاحبها من ورائها هدفاً صغيراً ومصلحة شخصية...

فيقف (عليه السلام) موقفاً صلباً، ويستغرب الحادثة وما يجري معه، وكيف أنه لو أعطي السموات والأفلاك مقابل معصية الله تعالى ولو في سلب نملة شعيرتها، لما فعل ذلك... فالنعيم يفنى، واللذة لا تبقى...

وأكثر ما يلفت في النص الذي سنسمعه الآن هو كيف أنه نظر إلى الهدية، وهي أشبه بقالب حلوى حسبما يبدو، وقد زين بما يجذب الناظر... كيف أنه رآه وكأنه عُجن بريق حية أو سمها... وهذا غاية ما يمكن لخطيب أو متكلم أن يصور للمستمع ما يقزز نفسه، وينفر هواه ...

يقول علي (عليه السلام):

"...وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها، ومعجونة شنئتها. كأنما عُجنت بريق حية أو قيئها، فقلت : أصلة، أم زكاة، أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل البيت! فقال : لا ذاك ولا ذاك، ولكنها هدية، فقلت : هبلتك الهبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني؟ أمختبط أنت أم ذو جنة، أم تهجر والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب

شعيرة، ما فعلته، وإن دنياكم عندي، لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى! نعوذ بالله من سبات العقل، وقبح الزلل، وبه نستعين".

وفي نص آخر ينتقد (عليه السلام) بعض المحسوبيات التي نشأت في عهد الخلفاء ممن سبقوه، والعطايا والمخصصات التي كانت تورع عليهم بكثرة، دون حسيب، "وكان الأصل فيها أن تنفق غلتها على أبناء السبيل وأشباههم، فوزعت على معاوية ومروان". مما أدى إلى نشوء طبقة حاكمة مترفة، متعالية عن غيرها، مخالفة لسنة نبيها(ص) فأمر (عليه السلام) برد الأموال إلى أصحابها، وحكم بالعدل بين الناس، لأن من لم يجد سعة في العدل، ثم يجد ذلك في الجور والعدوان.

يقول (عليه السلام) : "والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الإماء، لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق!".

وفي نصل عنه (عليه السلام) يؤكد على العدل في تفريق الأموال والعطايا، والتسوية بين الناس في ما تعطيه الدولة لهم من بيت مال المسلمين، بالحق والقسط، بلا استرضاء ولا إغراء، ولا إسراف ولا تبذير... وهذا ما يرضي الله والناس، وتصلح به الآخرة والدنيا... وهذه سياسته (عليه السلام) المالية، يقول : "أتأمرونني أنا أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه! والله لا أطور به، ما سمر سمير، وأم نجم في السماء نجماً! لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله! ألا وأن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس، ويهينه عند الله، ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه، ولا عند غير أهله، إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودهم، فإن زلت به النعل يوماً، فاحتاج إلى معونتهم، فشر خليل، وألام خدين".

هذه بعض سياسة علي (عليه السلام) المالية، من موقفه تجاه الرشوة، إلى التفريط في مال المسلمين، إلى الرغبة عند البعض في تفضيلهم على الآخرين... وهي سياسة ضرورية لكل حاكم ومسؤول...

القضاة وصفاتهم :

إن الخلاف بين البشر أمر طبيعي، وليس من مجتمع خالٍ من ظلم أو طمع أو استغلال أو اعتداء... بين فرد وآخر، وبين رفيق ورفيق بل وربما بين آخ وأخيه، وزوج زوجته... فهناك النزاعات والاختلافات وسوء التفاهم على أمور مالية أو إرثية أو اجتماعية أو عقارية أو حق ما...

ولا بد لكل مجتمع، صغر أم كبر، من مرجع صالح أو أهل، يرجع إليه لحل النزعات، وفض الإشكالات، والحكم بين المتنازعين، وتبيان الحق لأهله على أسس عادلة، وقواعد حكيمة، دون ميل أو هوى.. وهذه الفئة أو المرجعية الصالحة، عُرفت منذ مئات السنين، وسميت بالقضاة، وامتازت غالباً بالعلم وسعة الصدر والحكمة والاتزان، ... وأحياناً بالحنكة والذكاء...

لكن القضاة بشر، لهم ما للبشر، وعندهم ما عند الناس العاديين... قد ينحرفون لا سمح الله، وقد يطمعون أو يشترون بمال أو هدية أو جاء أو حظوة عند السلطان... وما أكثر هؤلاء للأسف الشديد حيث نرى الكثير منهم، في التاريخ وفي زماننا هذا... وهنا يُطرح السؤال : وإذا فسد هؤلاء فمن يُصلح المجتمع ومن هو المرجع الصالح لفض الخصومات، والفصل في المنازعات؟.

من هنا يجب تحصين القاضي مادياً، وإعطاؤه كفايته مالياً حتى لا يكون عرضة للطمع... وينبغي أن يكون من أفضل الناس وأكثرهم صبراً، يقف عند الشبهة، شجاعاً في حكمه، خاضعاً للعلم والحجة... لا يغتر بمدح أو إطراء أو هدية...

ورد في كتاب الأمير (عليه السلام) للأشتر، لما ولاه مصر، وهو من أهم الوثائق التاريخية في تنظيم الدولة والمجتمع ... ورد في شأن القضاة : "... ثم إختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك، ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تُشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه وأوقفهم في

الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه، إطراء ولا يستمليه إغراء، وأولئك قليل، ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك، فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار، يعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا".

انتهى كلامه (عليه السلام) الذي إن تأملنا فيه بدقة لتطبيقه لرأينا أنه أشمل وأكمل نص في هذا الاتجاه وفي هذا المجال ... ولو طبق، لارتفعت أكثر مظالم العباد، ولاستوى أمر البلاد ... لأن أمور المجتمع وشؤونه وسياسته ونظامه مرتبط بعضه بالبعض.

وبعد ما تحدث (عليه السلام) عن الجنود وما ينبغي أن يكونوا عليه، وعن عمال الخراج ودورهم، قال (عليه السلام): "ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب، لما يُحكمون من المعاقد، ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها".

وينبغي للقاضي أن يكون لديه الحد الأدنى من الخبرة الاجتماعية، ليميز بين الصالح والطالح، والثقة والمظنون فيه ... فالرجل المسلم العادل الثقة يحمل فعله على المحمل الحسن ابتداء، بل نلتمس لفعله وجهاً شرعياً ما، وإن كان له جاهلين، فلا نشكك في فعله، كما هي عادة الجهلة من الناس، ومتتبعي العورات لقلة ورعيهم...

يقول (عليه السلام) : "ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن".

فهذه يا أخي جملة توصيات في شأن القضاة وسلوكهم وأحكامهم والتي بها يصلح المجتمع ويسود العدل بين الناس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

***